

الأربعون القدية

الحدیث الثامن عشر

الغرة والتحجيل
بشرح حديث جبريل

قبة:
أبو إسحاق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ به من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتد ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد ألا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ" (آل عمران/102)
يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا
(وَيَسَاءَ وَأَتَقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا)"(النساء: 1)
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيداً {70} يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ
(يَطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً" (الأحزاب: 70 : 71)

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار .

أما بعد:

*نص حديث الباب :

* عَنْ يَحْيَى بْنِ يَعْمَرَ، قَالَ: كَانَ أَوَّلَ مَنْ قَالَ فِي الْقَدَرِ بِالْبُصْرَةِ مَعْبُدُ الْجَهَنِّي، فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَحُمَيْدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْجَمِيرِيُّ حَاجِبِينَ - أَوْ مُعْتَمِرِينَ - فَقُلْنَا: لَوْ لَقِينَا أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَسَأَلْنَاهُ عَمَّا يَقُولُ هُوَ لَاءِ فِي الْقَدَرِ، فَوَقَّفَ لَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ دَاخِلًا الْمَسْجِدِ، فَاسْتَفْتَيْتُهُ أَنَا وَصَاحِبِي أَحَدًا عَنْ يَمِينِهِ، وَالْآخَرَ عَنْ شِمَالِهِ، فَظَنَنْتُ أَنَّ صَاحِبِي سَيَكِلُ الْكَلَامَ إِلَيَّ، فَقُلْتُ :

أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ إِنَّهُ قَدْ ظَهَرَ قِبَلَنَا نَاسٌ يَقْرءُونَ الْقُرْآنَ، وَيَتَقَفَّرُونَ الْعِلْمَ، وَذَكَرَ مِنْ شَأْنِهِمْ، وَأَنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّ لَا قَدَرَ، وَأَنَّ الْأَمْرَ أَنْفٌ، قَالَ: «فَإِذَا لَقَيْتَ أَوْلِيكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنِّي بَرِيءٌ مِنْهُمْ، وَأَنَّهُمْ بُرَاءٌ مِنِّي»، وَالَّذِي يَخْلِفُ بِهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ «لَوْ أَنَّ لِأَحَدِهِمْ مِثْلَ أَحَدٍ ذَهَبًا، فَأَنْفَقَهُ مَا قَبِلَ اللَّهُ مِنْهُ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ» ثُمَّ قَالَ:

حَدَّثَنِي أَبِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ، إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ النَّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعْرِ، لَا يَرَى عَلَيْهِ أَثَرَ السَّفَرِ، وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَاسْتَدْرَكَ بَيْنَهُ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخْذَيْهِ، وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِسْلَامِ.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا»، قَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ: فَعَجَبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ، وَيُصَدِّقُهُ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ ،

قَالَ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»، قَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ، قَالَ: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ، قَالَ: «مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ» قَالَ:

فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَتِهَا، قَالَ:

«أَنْ تَلِدَ الْأُمَّةُ رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَى الْحَفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّيْءِ يَنْطَاوِلُونَ فِي الْبُنْيَانِ»، قَالَ: ثُمَّ انْطَلَقَ فَلَبِثْتُ مَلِيًّا، ثُمَّ قَالَ لِي: «يَا عُمَرُ أَتَدْرِي مِنَ السَّائِلِ؟» قُلْتُ : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «فَإِنَّهُ جَبْرِيْلُ أَنْتَا كُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ»

*تخریج حدیث الباب :

أخرجه البخاري(50) كِتَابُ الْإِيمَانِ بَابُ : سُؤَالِ جِبْرِيلَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الْإِيمَانِ، وَالْإِسْلَامِ، وَالْإِحْسَانِ، وَعِلْمِ السَّاعَةِ.

ومسلم(9) كِتَابُ الْإِيمَانِ بَابُ: معرفة الإيمان، والإسلام، والقدر، وَعَلَامَةِ السَّاعَةِ. ¹

***أهمية حديث الباب :**

لا شك أن هذا الحديث يعد أصلاً من أصول هذا الدين وعماد من أعمدته التي تنير درب السالكين في مدارجهم لشرائع دين الإسلام .

قال القاضي عياض :

وهذا الحديث قد اشتمل على شرح جميع وظائف العبادات الظاهرة والباطنة، من عقود الإيمان، وأعمال الجوارح، وإخلاص السرائر، والتحفظ من آفات الأعمال، حتى إن علوم الشريعة كلها راجعة إليه، ومتشعبة منه ، وعلى هذا الحديث وأقسامه الثلاث أَلَفْنَا كِتَابَنَا الَّذِي سَمَّيْنَاهُ بـ"المقاصد الحسان فيما يلزم الإنسان " ، إذ لا يشذ شيء من الواجبات والسنن والרגائب والمحظورات والمكروهات عن أقسامه الثلاث. ²

قال النووي :

واعلم أن هذا الحديث يجمع أنواعاً من العلوم والمعارف والآداب واللطائف ، بل هو أصل الإسلام. ³

قال القرطبي :

فيصلح هذا الحديث أن يقال فيه: إنه أم السنة؛ لما تضمنه من جمل علم السنة، كما سميت الفاتحة: أم الكتاب؛ لما تضمنته من جمل معاني القرآن. ⁴

*** شرح فوائد حديث الباب :**

تبدأ قصة حديث الباب لما توجه يحيى بن يعمر وصاحبه حميد عبدالرحمن إلى عبدالله بن عمر- رضى الله عنهما- يسألانه عن فتنة من الفتن الى أطلت برأسها في أواخر عصر الصحابة رضى الله عنهم ،وهى فتنة القول بنفي القدر ، وأن الله -تعالى- لم يخلق أفعال العباد. وهذا هو معنى قول يحيى بن يعمر في أول حديث الباب :

" كَانْ أَوَّلُ مَنْ قَالَ فِي الْقَدْرِ بِالْبَصْرَةِ مَعْبُدُ الْجَهَنِيِّ ..."⁵ ، أى أنه تكلم في القدر نفياً له ، وقول الراوى : " يزعمون أن الأمر أنف " ، أى :

¹ وقد ذكرنا في حديث الباب لفظ الإمام مسلم رحمه الله ؛ فهو من أتم وأكمل المواضع التي جمعت ألفاظ حديث جبريل عليه السلام . وهذا مما خص الله -تعالى- به مسلماً عن غيره من أصحاب الحديث .

قال ابن حجر : حصل لمسلم في كتابه حظ عظيم مفرط لم يحصل لأحد مثله ، بحيث أن بعض الناس كان يفضل على صحيح محمد بن إسماعيل ؛ وذلك لما اختص به من جمع الطرق وجودة السياق والمحافظة على أداء الألفاظ كما هي من غير بقطيع ولا رواية بمعنى ، وقد نسج على منواله خلق عن النيسابوريين فلم يبلغوا شأوه وحفظت منهم أكثر من عشرين إماماً ممن صنف المستخرج على مسلم فسبحان المعطي الوهاب. تهذيب التهذيب(426/5)

² إكمال المعلم بفوائد مسلم(204/1)

ورسالة " المقاصد الحسان فيما يلزم الإنسان " للقاضي عياض قد ذكرها ابنه ، وقال: إنه لم يكملها ، ويغلب على الظن أنها مفقودة، فلم أجد لها ذكراً في غير هذين الموضوعين . الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب (49/2)

³ صحيح مسلم شرح النووي(194/1)

⁴ المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم(152/1)

⁵ يحيى بن يعمر أبو سليمان العدواني الفقيه، العلامة، أحد قراء البصرة ، وقاضي مرو. حدّث عن: عائشة، وأبي هريرة، وابن عباس، وابن عمر، وعدة . وقرأ القرآن على: أبي الأسود الدؤلي. قيل: إنه كان أول من نَقَطَ المصاحف ، وذلك =قبل أن يوجد تشكيل الكتابة بمدّة طويلة، وكان ذا لسان وفصاحة ، توفي قبل التسعين. وانظروفيات الأعيان (173/6) وسير أعلام النبلاء(442/4)

مستأنف لم يسبق لله - تعالى - فيه علم، وقد عُرف أصحاب هذه البدعة فيما بعد باسم " القدرية " ؛ وسُموا بذلك لأنهم أثبتوا للعبد قدرة توجد الفعل بانفرادها واستقلالها دون الله تعالى ، ونفوا أن تكون الأشياء بقدر الله وقضائه .

وأهل السنة والجماعة على أن الله -تعالى - يعلم مقادير الأشياء وأزمانها قبل إيجادها، ثم أوجد ما سبق في علمه أنه يوجد، فكل محدث صادر عن علمه ، وقدرته ، وإرادته، هذا هو المعلوم من الدين بالبراهين القطعية، وعليه كان السلف من الصحابة وخيار التابعين، إلى أن حدثت بدعة القدر في أواخر زمن الصحابة رضى الله عنهم.

وقد حكى المصنفون في المقالات عن طوائف من القدرية إنكار كون البارئ عالمًا بشيء من أعمال العباد قبل وقوعها منهم، وإنما يعلمها بعد كونها.

قال القرطبي :

قد انقرض هذا المذهب، ولا نعرف أحدًا ينسب إليه من المتأخرين ، والقدرية اليوم مطبقون على أن الله عالم بأفعال العباد قبل وقوعها، وإنما خالفوا السلف في زعمهم بأن أفعال العباد مقدورة لهم ، وواقعة منهم على جهة الاستقلال، وهو مذهب باطل، مع كونه أخف من المذهب الأول . وأما المتأخرون منهم ، فأنكروا تعلق الإرادة بأفعال العباد ، فراراً من تعلق القديم بالمحدث، وهم مخصومون بما قال الشافعي: إن سلم القدري بالعلم خصم. يعني يقال له: أيجوز أن يقع في الوجود خلاف ما تضمنه العلم؟ ، فإن منع ، وافق قول أهل السنة، وإن أجاز ، لزمه نسبة الجهل، تعالى الله عن ذلك ⁶.

وحديث الباب يفيد أن معيداً هو أول من قال بالقدر بالبصرة ، وتكاد المصادر التي ترجمت لمعبد أن تُجمع على ذلك ، وأن معيداً قد تشرب ذلك المنهج الضال من رجل من أهل البصرة كان نصرانياً ، فأسلم، ثم تنصّر يقال له : سيسويه أو سوسن ، وهو من أبناء المجوس ، كما نص على ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية وابن كثير وابن الأثير وأبوحاتم وغيرهم . وكان من حسنات الخليفة عبد الملك بن مروان أنه أمر بقتل معبد الجهني ⁷.

*** عود إلى حديث الباب :**

قال ابن عمر رضى الله عنهما :

" فَإِذَا لَقِيتَ أَوْلِيكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنِّي بَرِيءٌ مِنْهُمْ، وَأَنَّهُمْ بُرَاءٌ مِنِّي ، وَالَّذِي يَخْلِفُ بِهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ لَوْ أَنَّ لِأَحَدِهِمْ مِثْلَ أَحَدٍ ذَهَبًا، فَأَنْفَقَهُ مَا قَبِلَ اللَّهُ مِنْهُ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَدْرِ "

هنا قد تبرأ ابن عمر -رضى الله عنهما- من هؤلاء الضالين الذين خاضوا في تلك البدعة الكفرية ، والتبرء يأتي في الشرع على نوعين :

1- تبرأ من الشخص :

وهذا كما يقع من الأنبياء والمؤمنين حينما يتبرؤون من المشركين، وقد وردت سورة كاملة باسم "سورة التوبة" أو كما هي مشهورة باسم "سورة براءة" ، في التبرء من أعيان المشركين ،

⁶ فتح الباري(1/172)

⁷ ومعبد الجهني هذا بخلاف الصحابي معبد بن خالد الجهني ، أبو زرعة. الذى له صحبة ورواية ، كما نص على ذلك ابن أبي حاتم .

قال ابن حجر :وقيل: هو هو ، وهذا باطل، فإن القدرى وافق هذا الصحابي في اسم أبيه ونسبه، واختلف في اسم أبيه، فقيل خالد مثل الصحابي، وقيل عبد الله بن عويم، وقيل عبد بن عكيم .
انظر مجموع الفتاوى(384/7)والبداية والنهاية(34/9) وتاريخ الإسلام (2/1006)والإصابة في تمييز الصحابة(6/130)

قال تعالى (بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (1) فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ) (التوبة/2) وكذلك الخليل إبراهيم - عليه السلام - لما تبرأ من أبيه وقومه ، كما قال تعالى (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ) (الزخرف/26) ، فهذا تبرؤ من الشخص لمفارقتة أهل الإيمان بالكلية .

وكذلك يقال في قول الله تعالى { فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ } (الشعراء/216) **2- تبرأ من الفعل :**

وهذا يكون فيمن فعل فعلاً فيه مخالفة شرعية ، لكنها لا تُخرجه من دائرة الإسلام ، فالتبرء هنا يكون من فعله لا من شخصه ، ولهذا أمثلة كثيرة :

(أ) لما بعث النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ - رضي الله عنه - إلى بني جَذِيمَةَ ، فَدَعَاهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ ، فَلَمْ يُحْسِنُوا أَنْ يَقُولُوا : أَسْلَمْنَا ، فَجَعَلُوا يَقُولُونَ : صَبَأْنَا صَبَأَنَا ، فَجَعَلَ خَالِدٌ يَقْتُلُ مِنْهُمْ وَيَأْسِرُ ، فَلَمَّا عَلِمَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ :

«اللَّهُمَّ إِنِّي أَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ خَالِدٌ مَرَّتَيْنِ»⁸

فهنا قد تبرأ الرسول - عليه الصلاة والسلام - مما صنع خالد ومن عمله رضي الله عنه ، دون شخص خالد ، وذلك لأن خالدًا كان متأولاً معذوراً عند الله تعالى ، ولم يكن ذلك منه معصية تعدم فعلها ، بل محض خطأ أده إليه اجتهاده ، ومما يدل على ذلك أن النبي - صلى الله عليه وسلم - لم يعزله بعد ذلك عن قيادة الجيش .

(ب) عن أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه - قَالَ :

إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بَرِيءٌ مِنَ الصَّالِقَةِ ، وَالْحَالِقَةِ ، وَالشَّاقِقَةِ " .⁹

* وهنا يقال :

إن قول ابن عمر - رضي الله عنهما - في هؤلاء الذين قالوا بنفي القدر « فَإِذَا لَقِيتَ أَوْلِيكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنِّي بَرِيءٌ مِنْهُمْ ، وَأَنَّهَمْ بَرَاءٌ مِنِّي » يبين أن التبرء هنا إنما هو من القسم الأول ؛ يدل عليه قوله : «لَوْ أَنَّ لِأَحَدِهِمْ مِثْلَ أُحُدٍ دَهَبًا ، فَأَنْفَقَهُ مَا قَبِلَ اللَّهُ مِنْهُ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَدْرِ»

فمثل هذا المعنى قد ورد في الكتاب والسنة في حق الكافرين ، كقوله تعالى

(وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ) ، قوله تعالى (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا

لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ

عَذَابٌ أَلِيمٌ) (التوبة/36) ، وقوله تعالى (وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ

لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَأَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ) (الزمر/47)

وفي حديث أنس بن مالك - رضي الله عنه - أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ :

" يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لِأَهْوَنَ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ : لَوْ أَنَّ لَكَ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ أَكُنْتَ

تَفْتَدِي بِهِ ؟ فَيَقُولُ : نَعَمْ ، فَيَقُولُ : أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ هَذَا ، وَأَنْتَ فِي صَلْبِ آدَمَ : أَنْ لَا تُشْرِكَ

بِي شَيْئًا ، فَأَبَيْتَ إِلَّا أَنْ تُشْرِكَ بِي " .¹⁰

* عود إلى حديث الباب :

⁸ أخرجه البخاري (7189)

⁹ متفق عليه. السالقة ، والصالقة لغتان ، وهي التي ترفع صوتها عند المصيبة .

¹⁰ متفق عليه . وقد دلت الأدلة الشرعية وإجماع الأمة على كفر القدرية من نفاة علم الله تعالى .

قول. عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

" بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ، إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعْرِ، لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ..."
ومن الفوائد هنا أن جبريل -عليه السلام - قد جاء إلى النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - في صورة بشرية ، حتى قد رآه الصحابة - رضى الله عنهم- بأعينهم ، فظنوا أنه رجل من خارج المدينة ، ولكن الذى جعلهم يستغربون أمره أنه شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، ولا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه أحد من صحابة النبي صلى الله عليه وسلم .
والملائكة مخلوقات نورانية له أجنحة ، قال تعالى (الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةَ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(1)) (فاطر/1)

وعن عبدالله بن مسعود -رضى الله عنه- قال : رأى رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - جبريل في صورته على السدرة له ستمائة جناح . 11

* وفي حديث الباب قد أتى جبريل -عليه السلام- إلى النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - في صورة بشرية ، ومجىء الملائكة في الصورة البشرية قد ورد في غير ما موضع في الكتاب والسنة ، كما في قصة إبراهيم عليه السلام ، قال تعالى (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (24) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامًا قَوْمٌ مُنْكَرُونَ) (الذاريات /25) ، وكذلك في قصة لوط عليه السلام ، كما قال تعالى (فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ (61) قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ) (الحجر/62) .

وفي قصة مريم عليها السلام ، قال تعالى (فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا) (مريم /17) وورد كذلك في قصة الأبرع والأقرع والأعمى ، والأمثلة كثيرة. وقد كان جبريل -عليه السلام- كثيراً ما يأتى النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - في صورة الصحابي الجليل دحية الكلبي رضى الله عنه :

ففي حديث أم سلمة -رضى الله عنها- أن جبريل -عليه السلام - جعل يتحدث، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأُمِّ سَلَمَةَ: «مَنْ هَذَا؟» أَوْ كَمَا قَالَ، قَالَتْ: هَذَا دِحْيَةُ، فَلَمَّا قَامَ، قَالَتْ: وَاللَّهِ مَا حَسِبْتُهُ إِلَّا إِيَّاهُ، حَتَّى سَمِعْتُ حُطْبَةَ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يُخْبِرُ خَبَرَ جِبْرِيلَ . 12

*** عود إلى حديث الباب :**

11 متفق عليه .

12 متفق عليه.

و دحية الكلبي هو خليفة بن فروة بن فضالة الكلبي القضاعي ، صاحب النبي -صلى الله عليه وسلم- ورسوله بكتابه إلى عظيم بصرى، ليوصله إلى هرقل. أسلم دحية قبل بدر، ولم يشهدها، وكان يضرب به المثل في حسن الصورة، وكان يشبه بجبريل ، عَنْ أَنَسٍ:

أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كَانَ يَقُولُ: (يَأْتِينِي جِبْرِيلُ فِي صُورَةِ دِحْيَةَ، وَكَانَ دِحْيَةُ جَمِيلًا) أورده الحافظ في الإصابة عن النسائي، وصحح إسناده.

قال الذهبي : لا ريب أن دحية كان أجمل الصحابة الموجودين بالمدينة، وهو معروف، فلذا كان جبريل ربما نزل في صورته. وقد شهد دحية اليرموك، وقد نزل دمشق وسكن المنزة، وعاش إلى خلافة معاوية. وانظر سير أعلام النبلاء (550/2) والإصابة في تمييز الصحابة(321/2)

قَالَ جَبْرِيلُ : يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِسْلَامِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:
الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ.....
وهنا فوائد : الأولى :

1) قول جبريل -عليه السلام- " يا مُحَمَّد " ، حيث ناداه باسمه المجرد ، وإنما فعل ذلك لأنه أراد التعمية على السامعين ، فصنع صنيع الأعراب.¹³
2) شهادة " أن لا إله إلا الله " : تشمل على أنواع التوحيد الثلاثة " توحيد الألوهية ، وتوحيد الربوبية ، وتوحيد الأسماء والصفات " .
فهي تدل على توحيد الألوهية بدلالة المطابقة ، لأن معنى " لا إله إلا الله " : أي لا معبود بحق إلا الله .

وهي تدل على التوحيد الربوبية بدلالة التضمن ؛ لأن من عبد الله -تعالى- ولم يشرك به شيئاً فهذا يدل ضمناً على أنه قد اعتقد بأن الله هو ربه ومالكة الذي لا رب غيره. وقد ورد هذا المعنى في أول أمر في القرآن في قوله تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (21)) (البقرة/21) فالذي انفرد بالخلق هو المستحق للعبادة دون غيره .
قال ابن القيم :

والإلهية التي دعت الرسل أمهم إلى توحيد الرب بها: هي العبادة والتأليه. ومن لوازمها: توحيد الربوبية الذي أقر به المشركون، فاحتج الله عليهم به، فإنه يلزم من الإقرار به الإقرار بتوحيد الإلهية .14

*وهي تدل على توحيد الأسماء والصفات بدلالة المطابقة ، لشمولها على اسم الله عزوجل ، ودلالة التضمن لأن الأدلة الشرعية قد دلت على إثبات الأسماء والتي تتضمن صفات الله تعالى ، قال تعالى (قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى) (الإسراء/110)
فاسم " الله " يتضمن صفة الألوهية ، والله مألوه أي معبود تحبه القلوب وتأله.
*** الفائدة الثانية :**

قوله صلى الله عليه وسلم " أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ " .
وهكذا التوحيد الصحيح إنما ينبني على ركنين : " ركن النفي ، ركن الإثبات " .
نفي الألوهية عن سوا الله تعالى ، وإثبات الألوهية لله وحده لا شريك له ، فالنفي المحض ليس بتوحيد ، والإثبات المحض ليس بتوحيد ، حتى يجمع بينهما .
والذي يستقر أدلة الكتاب والسنة يقف على هذا المعنى :

قال تعالى (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (26) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ) (الزخرف/27) ، وكذلك قوله تعالى (قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (75) أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ (76) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (77)) (الشعراء/77)
وقال تعالى (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ) (النحل/36)
وقال تعالى (وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا) (النساء/36) ، وما من نبي إلا دعا قومه قائلاً (يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ) (الأعراف/59)
لذا فقد جاءت بعثة النبي -صلى الله عليه وسلم- لتحقيق هذا الأصل ، فعن أنس بن مالك -
رضي الله عنه - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

¹³ النكت على صحيح البخاري(9/2)

¹⁴ إغاثة المهفان(135/2)

«أَمَرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، فَإِذَا قَالُواهَا ، وَصَلُّوا صَلَاتِنَا ، وَاسْتَقْبَلُوا قِبَلَتَنَا ، وَذَبَحُوا ذَبِيحَتَنَا ، فَقَدْ حَرَمْتُ عَلَيْنَا دِمَاؤَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ ، إِلَّا بِحَقِّهَا وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ» . 15

وَلَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الْوَفَاةُ جَاءَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَوَجَدَ عِنْدَهُ أَبَا جَهْلٍ بِنِ هِشَامٍ ، وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي أُمَيَّةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَبِي طَالِبٍ :
" يَا عَمِّ ، قُلْ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، كَلِمَةً أَشْهَدُ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ " . 16
فالمشركون الذين بُعث فيهم النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لم يشفع لهم ما حققوه من طرف خفي في باب توحيد الربوبية ؛ (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ) ؛ وذلك لأنهم أهدروا توحيد الألوهية في إشراكهم بالله - عز وجل - بعبادة الطواغيت والأصنام وقالوا { مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى } {

فهم لم يعتقدوا في اللات والعزى أنها تخلق أو ترزق أو تحيي أو تميت ، وإنما جاء شركهم أنهم أشركوها في الدعاء والعبادة ، كما قال تعالى (فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَاؤُا اللَّهِ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ (65)) (العنكبوت/65) ، وتبع ذلك إشراكهم في توحيد الأسماء والصفات لما اشتقوا من أسماء الله - تعالى - أسماءً لأنهم ، فاللات من الله ، والعزى من العزيز ، ومناة من المنان .

* قال صلى الله عليه وسلم : " وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ... " :

وهذا هو الشق الثاني من الشهادة ، أن تشهد أن محمداً نبي الله ورسوله إلى العالمين ، إنسهم وجنهم ، المبشر به في التوراة والإنجيل ، ونذكر من أدلة ذلك ما يلي :
قال تعالى (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ) (الفتح/29) ، وقال تعالى (مَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (28) (سبأ/28) ، وقال تعالى (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ) (الأعراف/157)
عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَنْ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنَّهُ قَالَ :
«وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ ، لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٍّ ، وَلَا نَصْرَانِيٍّ ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ ، إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ» 17

وَعَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ ، قَالَ : لَقِيتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو بْنَ الْعَاصِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - فَقُلْتُ :
أَخْبِرْنِي عَنْ صِفَةِ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي التَّوْرَةِ ؟
قَالَ : " أَجَلٌ ، وَاللَّهِ إِنَّهُ لَمَوْصُوفٌ فِي التَّوْرَةِ بِبَعْضِ صِفَتِهِ فِي الْقُرْآنِ : { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا } [الأحزاب: 45] ، وَحِزْرًا لِلأُمِّيِّينَ ، أَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي ، سَمِيَّتْكَ الْمَتَوَكَّلِ لَيْسَ بِفَطْرٍ وَلَا غَلِيظٍ ، وَلَا سَخَّابٍ فِي الْأَسْوَاقِ ، وَلَا يَدْفَعُ بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ ، وَلَكِنْ يَغْفِرُ وَيَعْفُورُ ، وَلَنْ يَقْبِضَهُ اللَّهُ حَتَّى يُقِيمَ بِهِ الْمِلَّةَ الْعَوْجَاءَ ، بَأَنْ يَقُولُوا : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَيَفْتَحَ بِهَا أَعْيُنًا عَمِيًّا ، وَأَدَانًا صُمًَّا ، وَقُلُوبًا غُلْفًا " . 18

* وشهادة أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - رسول الله تقتضى طاعته فيما أمر ونهى ؛ لأن طاعته من طاعة الله عز وجل ، قال تعالى (مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ) (النساء/80)

15 متفق عليه.

16 متفق عليه.

17 أخرجه مسلم (153) باب وجوب إيمان أهل الكتاب برسالة الإسلام.

18 أخرجه البخاري (2125)

وَعَنْ الْمُقَدَّامِ بْنِ مَعْدِيكَرِبٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -:
 أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْفُرْآنَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ ، أَلَا يُوشِكُ الرَّجُلُ مُتَّكِنًا شَبْعَانًا عَلَى أَرِيكَتِهِ يَأْتِيهِ أَمْرٌ مِمَّا
 أَمَرْتُ بِهِ ، أَوْ نَهَيْتُ عَنْهُ ، فَيَقُولُ: مَا نَدْرِي مَا هَذَا، عِنْدَنَا كِتَابُ اللَّهِ لَيْسَ هَذَا فِيهِ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ
 كِتَابُ اللَّهِ ، فَمَا وَجَدْنَا فِيهِ مِنْ حَلَالٍ اسْتَحْلَلْنَاهُ، وَمَا وَجَدْنَا فِيهِ مِنْ حَرَامٍ حَرَّمْنَاهُ ، أَلَا وَإِنَّ مَا
 حَرَّمَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مِثْلُ مَا حَرَّمَ اللَّهُ .¹⁹

فإن الشهادتين تضمن نوعين من التوحيد :

(أ) توحيد العبادة : وهذه لله -عز وجل- وحده لا شريك له ، فلا معبود بحق إلا الله تعالى .
 (ب) توحيد الاتباع : وهذه للنبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - دون غيره ، فلا متبوع بحق إلا رسول الله .

*** عوداً إلى حديث الباب :**

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ ، وَتُؤْتِي الرِّكَاعَةَ ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ ، وَتَحُجُّ الْبَيْتَ إِنْ
 اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا " .

فهذه التي ذكرها النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بعد الشهادتين هي أركان الإسلام .
 وأما الصلاة فهي ركن الإسلام الأعظم بعد الشهادتين ، والخلاف في حكم تاركها كسلاً خلاف
 عريض ، وهذا إن دل ذلك إنما يدل على عظم هذا الركن .
 عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فِي حَدِيثِ الْإِسْرَاءِ الْمَشْهُورِ ، وَفِيهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ
 عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيَّ مَا أَوْحَى فَفَرَضَ عَلَيَّ خَمْسِينَ صَلَاةً فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ ، فَزَلْتُ إِلَى مُوسَى
 صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : مَا فَرَضَ رَبُّكَ عَلَيَّ أُمَّتِكَ ؟ قُلْتُ خَمْسِينَ صَلَاةً . قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ
 فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ . قَالَ : فَلَمْ أَزَلْ أَرْجِعْ بَيْنَ رَبِّي وَتَعَالَى وَبَيْنَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ حَتَّى
 قَالَ : يَا مُحَمَّدُ إِنَّهُنَّ خَمْسُ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ ، لِكُلِّ صَلَاةٍ عَشْرٌ ، فَذَلِكَ خَمْسُونَ صَلَاةً)²⁰
 فكان فرض الصلاة حين عرج النبي -صلى الله عليه وسلم- وذلك قبل الهجرة بنحو ثلاث
 سنوات .

وفرضت الصلاة أول ما فرضت ركعتين، فلما هاجر النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى المدينة
 أقرت صلاة السفر، وزيدت في صلاة الفجر، فصارت الظهر أربعاً، والعصر أربعاً، والعشاء
 أربعاً، وبقيت الفجر على ركعتين لأنه يطول فيها القراءة، وبقيت المغرب على ثلاث لأنها وتر
 النهار.²¹

عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - قَالَتْ: «فَرَضَ اللَّهُ الصَّلَاةَ جِئْنَ فَرَضَهَا، رَكْعَتَيْنِ

¹⁹ أخرجه أحمد (17174) وأبو داود (4604) ، وانظر السلسلة الصحيحة (ح / 882)
 ومن فوائد هذا الحديث :

قال الطيبي :
 في تكرير كلمة " أَلَا " توبيخ وتقريع ، نشأ من غضب عظيم على من ترك السنة والعمل بالحديث استغناء بالكتاب ، فكيف
 بمن رجح الرأي على الحديث؟! أ.هـ.
 قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " مُتَّكِنًا شَبْعَانًا عَلَى أَرِيكَتِهِ " : أى على سريره ، وفي ذلك إشارة إلى منشأ جهله وعدم اطلاعه
 على السنن ، فرد كلام النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بقلة نظره ، ودوام غفلته بتعهد الاتكاء والرقاد .
 وقال القاري: يعني الذي لزم البيت ، وقعد عن طلب العلم ، فهذه الصفة للترفة والدعة ، كما هو عادة المتكبر المتجبر
 القليل الاهتمام بأمر الدين . وانظر عون المعبود (7 / 35) وتحفة الأحوذى (463/6)
²⁰ متفق عليه .

²¹ وقد ذهب جماعة من أهل العلم أنه لم يكن قبل الإسراء صلاة مفروضة وإنما كانت ركعتان بالغداة وركعتان بالعشي
 يشهد لذلك قول الله تعالى: "واذكر اسم ربك بكرة وأصيلاً" سورة المزمل... وقوله تعالى: "وسبح بحمد ربك بالعشي
 والإبكار" سورة غافر... ثم قوله تعالى: "أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى" سورة العلق.

رَكْعَتَيْنِ، فِي الْحَضَرِ وَالسَّفَرِ، فَأُقِرَّتْ صَلَاةُ السَّفَرِ، وَزِيدَ فِي صَلَاةِ الْحَضَرِ» . 22

*وأما الزكاة :

فهي قرينة الصلاة في الكتاب والسنة ، قال الله تعالى: {وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ}

[البقرة: 43]

وقال تعالى (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) (التوبة/103)

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: «أَمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَنْتَهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنْ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّ الْإِسْلَامِ، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ» . 23

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّ أَعْرَابِيًّا أَتَى النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَقَالَ: دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ إِذَا عَمَلْتُهُ دَخَلْتُ الْجَنَّةَ، قَالَ:

«تَعْبُدُ اللَّهَ لَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ الْمَكْتُوبَةَ، وَتُؤَدِّي الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ» قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا أَزِيدُ عَلَى هَذَا، فَلَمَّا وُلِيَ، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَلْيَنْظُرْ إِلَى هَذَا» . 24

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ:

لَمَّا تُوفِّي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَاسْتُخْلِفَ أَبُو بَكْرٍ بَعْدَهُ، وَكَفَرَ مَنْ كَفَرَ مِنَ الْعَرَبِ، قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ لِأَبِي بَكْرٍ: كَيْفَ تُقَاتِلُ النَّاسَ، وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " أَمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَمَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَقَدْ عَصَمَ مِنِّي مَالَهُ، وَنَفْسَهُ، إِلَّا بِحَقِّهِ وَحِسَابِهِ عَلَى اللَّهِ "، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

وَاللَّهُ لِأَقَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ، فَإِنَّ الزَّكَاةَ حَقُّ الْمَالِ، وَاللَّهُ لَوْ مَنَعُونِي عَقَالًا ، وَفِي رِوَايَةٍ " عَنَاقًا " 25 كَانُوا يُؤَدُّونَهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَقَاتَلْتُهُمْ عَلَى مَنْعِهِ، فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: فَوَاللَّهِ، مَا هُوَ إِلَّا أَنْ رَأَيْتُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ شَرَحَ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ لِلْقِتَالِ، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ الْحَقُّ . 26

وتطلق الزكاة على الصدقة الواجبة والمندوبة والنفقة والحق والعفو ، والزكاة أمر مقطوع به في الشرع يُستغنى عن تكلف الاحتجاج له وإنما وقع الاختلاف في بعض فروعها وأما أصل فرضية الزكاة فمن جدها كفر .

*وتعريفها في الشرع :

إعطاء جزء من النصاب الحولي إلى فقير ونحوه غير هاشمي ولا مطلبي ثم لها ركن وهو الإخلاص وشرط هو السبب وهو ملك النصاب الحولي .

وشرط من تجب عليه وهو العقل والبلوغ والحرية ، ولها حكم وهو سقوط الواجب في الدنيا

22 متفق عليه.

23 متفق عليه.

24 أخرجه البخاري(1397) بَابُ وَجُوبِ الزَّكَاةِ ، ومسلم (14)

25 قوله (عناقا) : هي الأنثى من ولد المعز التي لم تبلغ سنة.وأما رواية "عقالاً" : فقد ذهب كثير من المحققين إلى أن المراد بالعقال الحبل الذي يعقل به البعير.

26 متفق عليه.

وحصول الثواب في الأخرى ، وحكمة وهي التطهير من الأدناس ورفع الدرجة . 27

*** ومما ورد في الترهيب من ترك الزكاة :**

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا مِنْ صَاحِبِ كَنْزٍ لَا يُؤَدِّي زَكَاتَهُ، إِلَّا أُحْمِيَ عَلَيْهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، فَيَجْعَلُ صَفَائِحَ فَيَكْوَى بِهَا جَنْبَاهُ، وَجَبِينَهُ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَ عِبَادِهِ، فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، ثُمَّ يَرَى سَبِيلَهُ، إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِمَّا إِلَى النَّارِ.» 28

*** وأما الصوم :**

فقد فرضه الله -تعالى- في شعبان في السنة الثانية من الهجرة ،وصام الرسول - صلى الله عليه وسلم - تسع رمضانات .

وقد فرض الله - تعالى- الصيام على ثلاث مراحل:

الأولى:

في السنة الأولى من الهجرة كان الفرض على المسلم هو صيام عاشوراء فقط ، وذلك قبل فرض صيام رمضان ، فعن ابن عمر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ: «صَامَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَاشُورَاءَ، وَأَمَرَ بِصِيَامِهِ فَلَمَّا فُرِضَ رَمَضَانُ تُرِكَ» 29 .

الثانية :

في السنة الثانية من الهجرة فُرض رمضان ، وكان فيها التخيير بين الصيام وبين الإطعام، لمن لا يريد الصيام ، حتى نزل الحكم بفرضية الصوم على كل مستطيع ، ولكن كان هذا الإلزام بالصيام على هيئة خاصة ، نذكرها في المرحلة الثالثة .

عَنْ سَلْمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّهُ قَالَ :
" لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: { وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ } [البقرة: 184] كَانَ مَنْ أَرَادَ أَنْ يُفْطِرَ وَيَفْتَدِيَ، حَتَّى نَزَلَتِ الْآيَةُ الَّتِي بَعْدَهَا فَتَسَخَّرَهَا " 30 .

الثالثة :

إذا كان الرجل صائماً وحضر الإفطار ونام قبل أن يفطر لم يأكل ليلته ولا يومه حتى يمسي ، يعني إذا غربت الشمس فإنه يحل له أن يفطر ، ولكن إذا ناموا قبل الأكل فإنه يلزمه الإمساك إلى مغيب الشمس من الغد .

فَعَنِ الْبَرَاءِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ :

" كَانَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إِذَا كَانَ الرَّجُلُ صَائِمًا، فَحَضَرَ الْإِفْطَارَ، فَنَامَ قَبْلَ أَنْ يُفْطِرَ لَمْ يَأْكُلْ لَيْلَتَهُ وَلَا يَوْمَهُ حَتَّى يُمْسِيَ، وَإِنَّ قَيْسَ بْنَ صِرْمَةَ الْأَنْصَارِيِّ كَانَ صَائِمًا، فَلَمَّا حَضَرَ الْإِفْطَارَ أَتَى امْرَأَتَهُ، فَقَالَ لَهَا: أَعِنْدِكَ طَعَامٌ؟ قَالَتْ: لَا وَلَكِنْ أَنْطَلِقُ فَأَطْلُبُ لَكَ، وَكَانَ يَوْمَهُ يَعْمَلُ، فَعَلِبَتْهُ عَيْنَاهُ، فَجَاءَتْهُ امْرَأَتُهُ، فَلَمَّا رَأَتْهُ قَالَتْ:

خَبِيئَةٌ لَكَ، فَلَمَّا انْتَصَفَ النَّهَارُ غُشِيَ عَلَيْهِ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَنَزَلَتْ هَذِهِ

27 تحفة الأهودى(195/3)وفتح الباري(262/3)

28 أخرجه مسلم (987)

29 متفق عليه.

30 متفق عليه.

وقوله تعالى (وعلى الذين يطيقونه فدية) المعنى الذين يستطيعون الصوم ويفطرون بدون عذر عليهم أن يطعموا عن كل يوم مسكيناً ، وكان هذا أول ما فرض الصوم إذ كان المسلمون مخيرين بين الصوم والفدية ، فلما نزل قوله تعالى { فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ } نُسخ هذا الحكم ، وأصبح الصوم هو المحتم على المستطيع .

الآيَةُ: {أَجَلَ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثِ إِلَى نِسَائِكُمْ} [البقرة: 187] فَفَرَحُوا بِهَا فَرَحًا شَدِيدًا، وَنَزَلَتْ: {وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ} [البقرة: 187].³¹
وعبادة الصوم من أجل وأعظم العبادات التي يتقرب بها العبد إلى ربه عزوجل ، ولو لم يأت في فضل الصوم إلا قوله تعالى " كُلُّ عَمَلٍ ابْنِ آدَمَ لَهُ ، إِلَّا الصِّيَامَ ، هُوَ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ " ³² لكفى.

***ومما ورد في الترهيب من ترك الصوم :**

عَنْ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -:
" بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ إِذْ أَتَانِي رَجُلَانِ ثُمَّ انْطَلَقَا بِي... فَإِذَا أَنَا بِقَوْمٍ مُعَلَّقِينَ بَعْرَاقِيهِمْ مُشْتَقَّةً أَشَدَّاهُمْ ، تَسِيلُ أَشَدَّاهُمْ دَمًا ، فَقُلْتُ: مَنْ هُوَ لَاءِ؟ ، قَالَا: هُوَ لَاءِ الَّذِينَ يُفْطِرُونَ قَبْلَ تَحَلَّةِ صَوْمِهِمْ ."³³
قال الذهبي :

وعند المؤمنين مقرر أن من ترك صوم رمضان بلا مرض ولا غرض أنه شر من الزاني ومدمن الخمر ، بل يشكون في إسلامه ، ويظنون به الزندقة والانحلال .³⁴
*** ثم قال صلى الله عليه وسلم : " وَتَحَجَّ النَّبِيِّ إِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا " :**
قال تعالى (وَبَلَّغْنَا عَلَى النَّاسِ حُجَّ النَّبِيِّ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (97)) (آل عمران/97)

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَقَالَ: «أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الْحَجَّ، فَحُجُّوا»، فَقَالَ رَجُلٌ: أَكَلْتُ عَامٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَسَكَتَ حَتَّى قَالَهَا ثَلَاثًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " لَوْ قُلْتُ: نَعَمْ لَوْجِبْتُ، وَلَمَا اسْتَطَعْتُمْ " ³⁵
والحج من أجل وأعظم العبادات التي تجمع بين الجهاد بالنفس والجهاد بالمال ، ولو لم يأت في فضل الحج إلا حديث أبي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - الذي قَالَ فِيهَا : سَمِعْتُ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَقُولُ: «مَنْ حَجَّ لِلَّهِ فَلَمْ يَرْفُثْ، وَلَمْ يَفْسُقْ، رَجَعَ كَيَوْمِ وُلِدَتْهُ أُمُّهُ» ³⁶ لكفى .
وقد انعقد إجماع الأمة على كون الحج فرضاً على كل مسلمٍ قادرٍ مرةً واحدةً في حياته، وأن فرضيته مما هو معلومٌ من الدين بالضرورة؛ أي يكفر من أنكره وجحدته.
وقد فرض الله تعالى - الحج كان في السنة التاسعة لما نزل قوله تعالى (وَبَلَّغْنَا عَلَى النَّاسِ حُجَّ النَّبِيِّ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا) ، وقد حج النبي -صلى الله عليه وسلم - حجة واحدة هي حجة الوداع ، وهي التي لم يحج من المدينة منذ هاجر إليها غيرها ، وكانت في السنة العاشرة من

³¹ أخرجه البخاري(1816)، والترمذي(2968)

³² متفق عليه.

³³ أخرجه ابن خزيمة(1986)والحاكم(1568) ، وقال الحاكم : هذا حديث صحيح على شرط مسلم ، ولم يخبراه .

وقال الذهبي : على شرط مسلم.

³⁴ الكبائر(ص/44)

³⁵ أخرجه مسلم (1337)

³⁶ متفق عليه.

قال القاضي: هذا من قوله تعالى: {فلا رفث ولا فسوق} . والرفث: الفحش في القول، وقيل: الجماع، قال الله تعالى: {أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم} . وقيل: هو كناية عن الجماع، وقيل: الرفث: التصريح بذكر الجماع، قال الأزهرى: هي كلمة جامعة لكل ما يريده الرجل من المرأة. وكان ابن عباس يخصه بما خوطب به النساء.
قال شيخ الإسلام ابن تيمية:(الرفث) هو الجماع وليس في المحظورات ما يفسد الحج إلا جنس الرفث فلماذا ميز بينه وبين الفسوق. وأما سائر المحظورات: كاللباس والطيب فإنه وإن كان يأت بها فلا تفسد الحج عند أحد من الأئمة المشهورين. إكمال المعلم بفوائد مسلم(4/462)(108/26)

الهجرة ، وقد وردت أحداث هذه الحجة مفصلة في حديث جابر رضى الله عنه . 37

*** فإن قيل :**

إذا كان الحج قد فرض -على الراجح - في العام التاسع ، فلما أحرّ النبي - صلى الله عليه وسلم - حجه للعام العاشر ؟؟؟

***الجواب:**

قيل: لأن العام التاسع كان عام الوفود، فلما أذعنت العرب وصاروا يأتون أفواجا إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في المدينة فكان صلى الله عليه وسلم في المدينة ليلتي هؤلاء الوفود ليعلمهم دينهم عليه الصلاة والسلام.

وقيل: أنه في السنة التاسعة حج المشركون مع المسلمين فأراد النبي - صلى الله عليه وسلم - أن يكون حجه خالصاً للمسلمين ؛ ولهذا أذن في التاسعة ألا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان . 38

*** عود إلى حديث الباب :**

قَالَ جَبْرِيلُ : فَأَخْبَرَنِي عَنِ الْإِيمَانِ ، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

« أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ ، وَمَلَائِكَتِهِ ، وَكُتُبِهِ ، وَرُسُلِهِ ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ »

* أما الإيمان بالله فهو الاعتقاد الجازم بوجوده سبحانه وتعالى ، وربوبيته ، وألوهيته ، وأسمائه وصفاته ، والعمل بمقتضى ذلك الاعتقاد .

والإيمان بالله فيتضمن أربعة أمور:

الأمر الأول:

الإيمان بوجود الله تعالى، وهذا أمر فطري، فإن كل مولود يولد وهو عارف بربه، وهو مفطور على معرفة الله تعالى ؛ لذا فهذا الأمر لا يحتاج إلى سرد الأدلة وحشد البراهين.

والمستقرء لكتاب الله - تعالى - وسنة رسوله - صلى الله عليه وسلم - لا يرى الإكثار من

الحديث عن إثبات وجود الله عز وجل، وإنما يجد عامة الآيات والأحاديث إنما تدعوا إلى

الإيمان بالله تعالى .

فالإيمان بوجود الله -تعالى- أمر مركوز في الفطر السليمة ، فلم يؤثر عن أمة من الأمم إنكارها لوجود الله تعالى، إلا ما نسب إلى فرعون، والدهرية.

حتى من أنكر وجود الله تعالى ، فهذا فقط جحود في الظاهر، فهو مغلوب بإقراره بوجود الله في

الباطن ؛ كما ذكر الله - تعالى - عن فرعون وقومه في تعاملهم مع آيات الله سبحانه : { وجحدوا

بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً } (النمل:14) ، وقال تعالى حاكياً عن موسى -عليه السلام -

في مناظرته لفرعون (قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَمَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ)

(الإسراء/102)

وأما في عصرنا فقد كثر الملاحظة والمتشككون بسبب طغيان الحضارة المادية الجارفة، فكثرت

37 قال النووي :

حديث جابر حديث عظيم مشتمل على جمل من الفوائد ونفائس من مهمات القواعد ، وهو من أفراد مسلم لم يروه البخاري في صحيحه ، ورواه أبو داود كرواية مسلم .

قال القاضي : وقد تكلم الناس على ما فيه من الفقه وأكثروا ، وصنّف فيه ابن المنذر جزءً وخرّج من الفقه مائة ونيّفاً وخمسين نوعاً ، لو تقصّى لزيد على هذا القدر قريب منه . شرح النووي على مسلم (429/4)

38 شرح حديث جابر في صفة حجة النبي صلى الله عليه وسلم(ص/80)

لأجل ذلك السعي إلى الاستدلال على وجود الباري سبحانه ، فنذكر طرفاً من أدلة وجود الله تعالى ، والتي منها :

1) الفطرة السليمة :

وهذا ما ثبت بالكتاب والسنة والإجماع :

قال الله تعالى: { فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } [الروم:30]

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه- قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجَّسَانِهِ، كَمَا تُنْتَجِجُ الْبَهِيمَةُ بِبَهِيمَةٍ جَمْعَاءَ، هَلْ تُجَسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ»، ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: {فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا} [الروم: 30] الآية . 39

قال شيخ الإسلام ابن تيمية :

أهل الفطر كلهم متفقون على الإقرار بالصانع، وأنه فوق العالم، وأنهم حين دعائه يتوجهون إلى فوق بقلوبهم وعيونهم وأيديهم . 40

2- ما هو مشاهد من النظام المحكم الحكيم في حركة المخلوقات لهو أبين الأدلة على وجود الله تعالى ، قال تعالى (لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (40)) (يس/40) ، وقال تعالى (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (22)) (الأنبياء/22) 41

3- ما نسمة ونشاهد من إجابة المضطرين وكشف سوء عن المكروبين ما يدل دلالة قاطعة على وجوده سبحانه وتعالى ؛ فإن الداعي يشعر بحاجته وفقره إلى ربه وخالقه ، فإذا ألم بالإنسان ضراً وقع في محنة شديدة لا يبقى في ظنه رجاء المعاونة من أحد، فهو بأصل خلقة يتضرع إلى من يخلصه منها، ويجد نفسه يفرع إلى خالقه ويستغيث به ، وما ذاك إلا شهادة الفطرة بالافتقار إلى الصانع المدبر.

فرجوع الإنسان الى ربه -تعالى- عند الشدائد دليل على أنه يقر بالفطرة بربه سبحانه وتعالى . قال تعالى: {وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَاهُ فَلَمَّا نَجَّكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كُفُورًا } [الإسراء:67]. 42

39 متفق عليه.

40 الفتاوى الكبرى(368/6)

41 وفي المناظرة المشهورة بين أبي حنيفة وبعض الملاحدة ، وقد تعمد أبو حنيفة أن يتأخر عليهم وقت عقد تلك المناظرة ، فلما دخل عليهم قالوا له: لماذا تأخرت؟! فقال أبوحنيفة: لما أردت أن أجوز النهر لأصل إلى بيت الأمير لم أجد مركباً يحملني ، فانطلقت صاعقة عظيمة فضربت شجرة بجانبى فقسمت الشجرة إلى نصفين ، فانطلقت قطعة حديد فدخلت هذا الغصن وتحول إلى فأس ، ثم أقبل هذا الفأس وجعل يضرب في الشجرة التي انقسمت حتى صنع منها مركباً صغيراً فركبت فيه حتى وصلت إليكم. فقالوا : قارب كامل يوجد صدفة؟! فقال لهم : سبحان الله! أنتم تقولون إن السموات والأرض والجبال والبحار والإنسان والحيوانات والشمس والقمر والنجوم كل هذا وجد صدفة ، ولا تصدقوني بأن قارباً واحداً وُجد صدفة !!

42 وقد نشرت " مجلة المختار " المترجمة عن مجلة " ريدر دايجست " مقالة أيام الحرب لشباب من جنود المظلات يروي قصته فيقول: "إنه نشأ في بيت ليس فيه من يذكر الله أو يصلي، ودرس في مدارس ليس فيها دروس للدين، ولا مدرس متدين، نشأ نشأة علمانية مادية، أي مثل نشأة الحيوانات التي لا تعرف إلا الأكل والشرب والنكاح، ولكنه لما =

2 - الأمر الثاني :

الإيمان بربوبية الله تعالى :

وهو إفراد الله تعالى بالخلق والملك والتقدير والتدبير، فهو فعل الرب تجاه العبد .
قال الله عز وجل (أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَلَيْهَ مَعِ اللَّهُ قُلُوبًا
هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (64)) (النمل/64)
وقال تعالى (قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ
الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (31)) (يونس/31)
وهذا القسم من أقسام الإيمان مما أقرّ به عامة الخلق ، إلا من شذ من البشر ، قال تعالى
{ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ
(61) { (العنكبوت/61) ، وقال تعالى (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ)
(الزخرف/78)

3 - الأمر الثالث :

الإيمان بألوهية الله تعالى، وألوهية الله تعالى هي إفراد الله سبحانه وتعالى بالعبادة والإلهية،
وهذا هو معنى شهادة أن لا إله إلا الله، وقد سبق أن تحدثنا عن توحيد الألوهية.

الأمر الرابع :

توحيد الأسماء والصفات أو معرفة الله بأسمائه وصفاته، وذلك بإثبات صفات الله - تعالى -
وأسمائه على الوجه الذي يليق به سبحانه وتعالى، وبنفي مشابهته ومماثلته للمخلوقات، كما قال
الله سبحانه وتعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الشورى:11].
فقوله: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} فيه رد على المشبهة، وهو نفي للتشبيه والتمثيل، وقوله: {وَهُوَ السَّمِيعُ
الْبَصِيرُ} فيه رد على المعطلة النفاة، وهو دليل على الإثبات أيضاً.

قال ابن القيم :

وشرف العلم تابع لشرف معلومه ، ولا ريب أن أجل معلوم وأعظمه وأكبره هو الله الذي لا إله
إلا هو رب العالمين ، وقبوم السموات والأرضين ، الملك الحق المبين الموصوف بالكمال كله
المنزه عن كل عيب ونقص وعن كل تمثيل وتشبيه في كماله .

ولا ريب أن العلم به وبأسمائه وصفاته وأفعاله أجل العلوم وأفضلها ، ونسبته إلى سائر العلوم
كنسبة معلومة إلى سائر المعلومات، وكما أن العلم به أجل العلوم وأشرفها فهو أصلها كلها.⁴³

* أقول :

وقد خلط أناس وتخبطوا في هذا الباب من العلم الشريف ، ما بين مشبهه ومعطل ومكثف
ومفوض ومحرف ، وهدى الله -تعالى- الذين آمنوا لما اختلف فيه من الحق بإذنه ، والله يهدى
من يشاء إلى صراط مستقيم .

فأثبتوا ما أثبتته الله لنفسه من غير تمثيل ولا تكييف ولا تحريف ولا تعطيل ، وفي شرح هذه
الكلمات الأربع التي سطرها شيخ الإسلام ابن تيمية قد سطر المطولات والمختصرات ، وتم

=هبط أول مرة، ورأى نفسه ساقطاً في الفضاء قبل أن تفتح المظلة جعل يقول: يا الله، يا رب، ويدعو من قلبه وهو
يتعجب من أين جاء هذا الإيمان؟! !!

⁴³ مفتاح دار السعادة(86/1)

الرد فيها على أهل الزيغ والشبهات .

* عود إلى حديث الباب :

قوله صلى الله عليه وسلم لما سئل عن الإيمان :

«أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»

وأما الإيمان بالملائكة :

فهذا ركن من أركان الإيمان، فمن أنكرهم ولم يؤمن بهم فقد كفر ، قال تعالى (وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ

وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا) (النساء/136)⁴⁴

وهم خلق من خلق الله تعالى ، خلقهم الله من نور، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - قَالَتْ:

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ» .⁴⁵

ومما ورد في صفة خلق الملائكة أن خلقتهم عظيمة ولهم أجنحة ، قال تعالى (الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا

يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(1)) (فاطر/1)

وعن عبدالله بن مسعود -رضي الله عنه- قال : رأى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - جبريل

في صورته على السدرة له ستمائة جناح .⁴⁶

وقال النبي -صلى الله عليه وسلم - في وصف جبريل : (لَمْ أَرَهُ عَلَى صُورَتِهِ الَّتِي خُلِقَ عَلَيْهَا

غَيْرَ هَاتَيْنِ الْمَرَّتَيْنِ، رَأَيْتُهُ مُنْهَبَطًا مِنَ السَّمَاءِ سَادًّا عِظْمَ خَلْقِهِ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ)⁴⁷

وقد وصف النبي -صلى الله عليه وسلم - أحد حملة العرش كما في الحديث الذي رواه جابر بن

عبد الله -رضي الله عنهما- عَنْ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ :

"أَإِنَّ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَةِ اللَّهِ مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ، إِنَّ مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ إِلَى عَاتِقِهِ

مَسِيرَةٌ سَبْعَ مِائَةِ عَامٍ) .⁴⁸

وهم جند من جنود الله، قادرون على التمثل بأمثال الأشياء، والتشكل بأشكال جسمانية ، كما

سبق بيانه أول هذه الرسالة ، وهم مربوبون مسخرون، عباد مكرمون، لا يعصون الله ما أمرهم

ويفعلون ما يؤمرون ، لا يأكلون ولا يشربون، ولا يملئون ولا يتعبون، قال تعالى (وَمَنْ عِنْدَهُ لَا

يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ (19) يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ (20)) (الأنبياء/20)

وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

(إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ، وَأَسْمَعُ مَا لَا تَسْمَعُونَ، أَطَّتِ السَّمَاءُ وَحَقَّ لَهَا أَنْ تَبْطَأَ، مَا فِيهَا مَوْضِعٌ

أَرْبَعُ أَصَابِعٍ إِلَّا عَلَيْهِ مَلَكٌ سَاجِدٌ ، لَوْ عَلِمْتُمْ مَا أَعْلَمُ ، لَضَحَكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا) .⁴⁹

*ومما صح به الدليل في وظائفهم وأسمائهم :

⁴⁴ وقد أنكرت الفلاسفة وجود الملائكة والجن، وعبروا عنهما بالقوة التخيلية. قال شيخ الإسلام ابن تيمية : من أقوال

الملاحدة المتفلسفة الذين يجعلون " الملائكة " قوى النفس الصالحة ، " والشياطين " قوى النفس الخبيثة .

مجموع الفتاوى (346/4)

⁴⁵ أخرجه مسلم (2996)

⁴⁶ متفق عليه.

⁴⁷ أخرجه مسلم(177)

⁴⁸ أخرجه أبو داود(4742) وصححه ابن حجر .

⁴⁹ أخرجه الترمذى (2312) وابن ماجه (4190) ، انظر الصَّحِيحَةَ(ح/ 1722)

الأطيط: نقيض صوت المحامل والرحال إذا ثقل عليها الركبان . لسان العرب - (ج 7 / ص 256)

وللملائكة أعمال ومهمات معينة كلفهم بها الله -تعالى- ينفذونها، فجبريل موكل بالوحي، وميكائيل موكل بالمطر، وإسرافيل موكل بالنفخ في الصور، وملك الموت الموكل بقبض الأرواح، ومالك خازن النار، والملكان اللذان يأتیان في القبر، يقال لأحدهما المنكر والآخر النكير. ومن الملائكة الذين صرح القرآن بأسمائهم هاروت وماروت، قال تعالى: (وَمَا أَنْزَلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ بَبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ) (البقرة/102)

وقد اشتهر على ألسنة الناس أن اسم ملك الموت عزرائيل، وهذا التسمية لم ترد في حديث صحيح، وقد ذكره الله - تعالى - بوظيفته لا باسمه، فقال سبحانه: { قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (11) } (السجدة: 11)

وكذلك قد اشتهر على ألسنة الناس أن اسم "رضوان" خازن الجنة، وهذا التسمية لم ترد في حديث صحيح.

***وأما الإيمان بالكتب:**

فمن أركان عقيدة المسلم أن يؤمن بالقرآن الذي أنزله الله -تعالى- على محمد صلى الله عليه وسلم، وكذلك يؤمن بجميع الكتب التي أنزلت على الأنبياء السابقين.

قال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا) (النساء/136) وقال سبحانه {وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ} [الشورى:15]

ومن الكتب التي ثبتت تسميتها في القرآن الكريم:

1- التوراة المنزلة على موسى عليه السلام. قال تعالى (إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ) (المائدة: 44).

2- الإنجيل المنزل على عيسى عليه السلام. قال تعالى: (وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ) [المائدة: 46].

3- الزبور المنزل على داود عليه السلام. قال تعالى: (وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا) [النساء: 163]

4- صحف إبراهيم عليه السلام. قال تعالى: (إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ) [الأعلى: 18-19].

5- القرآن العزيز الذي أنزل على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم. قال تعالى: (طه مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى) (طه: 1-2)

ومما خص الله -تعالى- به القرآن دون غيره من الكتب المنزلة أنه تعالى قد تكفل بحفظه بنفسه الكريمة، فقال تعالى {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} [الحجر: 9]

لذا فمن ادعى أن القرآن قد ناله تحريف فهذا كافر مكذب لما أخبر الله -تعالى- بحفظه له.

وقد نقل الإجماع على كفر من ادعى ذلك جماعة من أهل العلم.

قال ابن قدامة:

ولا خلاف بين المسلمين أجمعين أن من جحد آية أو كلمة متفقا عليها أو حرفا متفقا عليه أنه

كافر .50

وكذلك جعل الله -تعالى- القرآن مهيمناً على سائر الكتب ، قا تعالى (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ) (المائدة/48)
قال ابن كثير :

والمهيمن هو الأمين والشاهد والحاكم على كل كتاب قبله، جعل الله هذا الكتاب العظيم، الذي أنزله آخر الكتب وخاتمها، أشملها وأعظمها وأحكمها حيث جمع فيه محاسن ما قبله، وزاده من الكمالات ما ليس في غيره .51

***إشكال وجوابه :**

يقول الله تعالى (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ) (المائدة/68)

أخبر الله - تعالى - عن أهل الكتاب أنهم ليسوا على شيء حتى يقيموا التوراة والإنجيل ، ومعلوم أن القرآن نسخ الكتب السابقة ، والخطاب كان موجهاً في الآية لمن هم في زمن النبي صلى الله عليه وسلم .

الجواب من وجوه :

1) أن التوراة والإنجيل اللذين أمر الله -تعالى- أهل الكتاب باتباعهما قد نصا على نبوة النبي صلى الله عليه وسلم، كما قال تعالى (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ) (الأعراف/157) ، وقال تعالى (وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ) (الصف/6)

لذا فإن اتباعهما للتوراة والإنجيل – على زعمهم - يوجب عليهم اتباع الرسول - صلى الله عليه وسلم- والدخول في شريعته .

ثم يقال إن قوله تعالى "وما أنزل إليكم من ربكم" ، فهو القرآن الكريم ، فهم ليسوا على شيء حتى يقيموا التوراة الصحيحة و الإنجيل الصحيح و القرآن المنزل ، وهذا كله لا يمكن بلوغه إلا بالقرآن المصدق المهيمن على سائر الكتب.

قال ابن حزم :

50 حكاية المناظرة في القرآن مع بعض أهل البدعة(ص/33)

وقد نص ابن حزم على أن الإمامية كلها قديما وحديثا على القول بأن القرآن مبدل ، زيد فيه ما ليس منه ونقص منه كثير ، وبديل منه كثير. ثم قال رحمه الله : والقول بأن بين اللوحين تبديلاً كفر صحيح وتكذيب لرسول الله صلى الله عليه وسلم. انظر الفصل (114/3)

وقد كثرت التهم على الشيعة الامامية بالقول والاعتقاد بأنة القرآن الكريم محرّف ؛ وذلك لقرائن عدة منها :

1) المصحف الموجود لديهم واسمه " مصحف فاطمة " :

ويروي الكليني في كتابه الكافي في صفحة 57 طبعة 1278هـ عن أبي بصير أي "جعفر الصادق": "وان عندنا لمصحف فاطمة عليها السلام، قال: قلت: وما مصحف فاطمة؟ قال: مصحف فيه مثل قرآنكم هذا ثلاث مرات، والله ما فيه حرف واحد من قرآنكم". وينكر بعض الشيعة المعاصرون " مصحف فاطمة " لكن هذا موجودة في كتبهم ولم يتبرأ منها علماءهم على رؤوس الأشهاد وبين الشيعة أنفسهم، مما يوحي أن هذا الإنكار هو من باب التقية التي يطبقونها مع الفرق الإسلامية الأخرى مثل التظاهر بأداء بعض العبادات علانية ومخالفتها سراً. وانظر الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة (ص/55)

2) ما ألفه المحدث الشيعي حسين النوري الطبرسي في ذلك المعنى وسماه " كتاب فصل الخطاب في تحريف كتاب رب الأرباب " ، وإن كان علمانهم يتبرأون من ذلك الكتاب ، يقول بعض المعاصرين من علماء الشيعة الإثني عشرية أنه «لو سلمنا أن الشيخ النوري يعتقد بنقصان القرآن، فهو قوله، لا قول الطائفة، قول الواحد لا ينسب إلى الطائفة»
51 تفسير القرآن العظيم (128/3)

وَأَمَّا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ مِنَ الرَّبِّ مِن رَّبِّكُمْ} فَحَقٌّ لَامْرِيَّةٌ فِيهِ ، وَهَكَذَا نَقُولُ وَلَا سَبِيلَ لَهُمْ إِلَىٰ إِقَامَتِهَا أَبَدًا لِرَفْعِ مَا أَسْقَطُوا مِنْهَا فَلْيَسُوا عَلَىٰ شَيْءٍ إِلَّا بِالْإِيمَانِ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَيَكُونُونَ حَبِيبِيٍّ مَقِيمِينَ لِلتَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ، كُلُّهُمْ يُؤْمِنُونَ حَبِيبِيٍّ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْهُمَا وَجَدَ أَوْ عَدِمَ ، وَيَكْذِبُونَ بِمَا بَدَّلَ فِيهِمَا مِمَّا لَمْ يَنْزِلْهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ فِيهِمَا وَهَذِهِ هِيَ إِقَامَتُهُمَا حَقًّا فَلَاحِ صَدَقَ قَوْلُنَا مُوَافِقًا لِنَصِّ الْآيَةِ بِلَا تَأْوِيلِ . وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَىٰ {وَلِيَحْكُمَ أَهْلَ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ} فَحَقٌّ عَلَىٰ ظَاهِرِهِ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ -تَعَالَىٰ- أَنْزَلَ فِيهِ الْإِيمَانَ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَاتَّبَاعَ دِينِهِ وَلَا يَكُونُونَ أَبَدًا حَاكِمِينَ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَىٰ فِيهِ إِلَّا بِاتِّبَاعِهِمْ دِينَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . 52

*وَأَمَّا الْإِيمَانُ بِالرَّسْلِ :

فَمِنْ أَرْكَانِ عَقِيدَةِ الْمُسْلِمِ أَنْ تُؤْمِنَ بِالرَّسْلِ وَالْأَنْبِيَاءِ السَّابِقِينَ ، قَالَ تَعَالَىٰ (أَمَّنَ الرَّسُولُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ) (البقرة/285) وَقَالَ تَعَالَىٰ (إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا (150) أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا (151) وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا) (النساء/152)

قال شيخ الإسلام ابن تيمية :

والمسلمون آمنوا بالأنبياء كلهم ، ولم يفرقوا بين أحد منهم ؛ فإن الإيمان بجميع النبيين فرض واجب ، ومن كفر بواحد منهم فقد كفر بهم كلهم ، ومن سب نبياً من الأنبياء فهو كافر يجب قتله باتفاق العلماء . 53

ولذا فمن كذب رسولاً من رسل الله -تعالى- فقد كذب كل الرسل ، يدل عليه قوله تعالى (كذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ) (الشعراء/105)، فأوقع التكذيب على المرسلين ، وهم لم يكذبوا إلا الرسول المرسل إليهم ؛ لأن من كذب رسولاً فقد كذب الرسل ، لأن كل رسول يأمر بتصديق غيره من الرسل ، ولكونهم متفقين في الدعوة إلى الله عزوجل . 54

*بُيُودِهِ :

ما ورد عن أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- عَنِ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَنَّهُ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٍّ، أَوْ نَصْرَانِيٍّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَا يُؤْمِنُ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ» . 55

وهذا لمن أبين الأدلة القاطعة على وجوب اتباع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وأن شرعته ناسخة لما سبقها من الشرائع .

فلو فرض أنه وجد اليوم نصراني يشهد بوحداية الله -تعالى- وبشرية المسيح عيسى الرسول عليه السلام ، فلن يطأ الجنة حتى ينضوي تحت لواء وشريعة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

52 الفصل (240/1)

53 وانظر الصلفية (ص/311) ونواقض الإيمان (ص/178)

54 الجامع لأحكام القرآن (119/13) وفتح القدير (176/3)

55 أخرجه مسلم (153) وأحمد (8203)

* ومن الإيمان بالرسول أن تؤمن بأن الله - سبحانه وتعالى - بعث رسلاً لا يحصيهم إلا هو سبحانه، وأن تؤمن بمن سمّاه الله منهم، قال تعالى (وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقُصُّهُمْ عَلَيْكَ) (النساء/164)

فقوله تعالى (وَرُسُلًا لَمْ نَقُصُّهُمْ عَلَيْكَ) أي : خلفاً آخرين لم يُذكروا في القرآن .
ودل الإجمال في ذكر "الملائكة والكتب والرسول" في حديث الباب على الاكتفاء بذلك في الإيمان بهم من غير تفصيل، إلا من ثبتت تسميته فيجب الإيمان به على التعيين .

قد اختلف أهل العلم في عدد الأنبياء والمرسلين ، وذلك بحسب ما ثبت عندهم من الأحاديث الواردة فيها ذكر عددهم ، فمن حسنها أو صححها فقد قال بمقتضاها ، ومن ضعفها فقد قال بأن العدد لا يُعرف إلا بالوحي فيتوقف في إثبات العدد .⁵⁶

* وقد فاضل الله -تعالى- بين رسله وأنبياءه ، كما قال تعالى (تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ) (البقرة/253) ، وقال تعالى (وَآلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ) (الإسراء/55)

فجعل الخلة لإبراهيم ومحمد عليهم الصلاة والسلام ، وجعل محمداً -صلى الله عليه وسلم- خير النبيين والرسول . فعن أبي هريرة -رضي الله عنه- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (أَنَا سَيِّدُ وُلْدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)⁵⁷

فإن قيل :

قال تعالى (أَمَّنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ) (البقرة/285) فنهى عن التفريق بين الرسل !!

فجوابه :

عندنا أمران : التفريق والتفضيل ، فالنهى الوارد هنا إنما هو عن التفريق بين الرسل في أصل الإيمان بهم ، فالواجب على المسلم أن يؤمن بكل الرسل والأنبياء ، ولا يكن كحال اليهود والنصارى الذين قال الله تعالى عنهم (إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا (150) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا) (النساء/151) ، وأما التفضيل فهذا مما سوغه الشرع في غير ما دليل .

***فإن قيل :**

روى ابن عباس -رضي الله عنهما- عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: " لا ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى " ⁵⁸

***فجوابه :**

أن هذا النهى متوجه إلى من قال ذلك على سبيل التنقص من نبي الله يونس عليه السلام .

⁵⁶ وقد ورد عن أبي ذر -رضي الله عنه- أنه قال : قلت : قال: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَمْ الْمُرْسَلُونَ؟ قَالَ: "ثَلَاثُ مِائَةٍ وَبِضْعَةَ عَشَرَ، جَمًّا غَيْرًا"، وَقَالَ مَرَّةً: "خَمْسَةَ عَشَرَ". أخرجه أحمد(21546)

، وهو حديث ضعيف جداً ، إسناده ضعيف جداً لجهالة عبيد بن الخشخاش، ولضعف أبي عمر الدمشقي، وقال الدارقطني: المسعودي عن أبي عمر الدمشقي متروك. المسعودي: هو عبد الرحمن بن عبد الله بن عتبة.

وأخرجه ابن حبان في صحيحه (361) ، وفيه إبراهيم بن هشام الغساني ، قال الذهبي عنه : متروك ، بل قال أبو حاتم : كذّاب ، ومن هنا فقد حكم ابن الجوزي على الحديث بأنه موضوع مكذوب. ذكره شعيب الأرنؤوط في تحقيقه للمسند.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية :

وهذا الذي ذكره أحمد ، وذكره محمد بن نصر، وغيرهما ، يبين أنهم لم يعلموا عدد الكتب والرسول ، وأن حديث أبي ذر في ذلك لم يثبت عندهم . وانظر مجموع الفتاوى (7 / 409) .

⁵⁷ أخرجه مسلم (2278)

⁵⁸ متفق عليه.

فالتفضيل بين الأنبياء يكون محرماً إذا تضمن التنقص لبعضهم أو الازدراء ببعضهم ، وإلا فالتفضيل والمفاضلة بينهم منصوص عليها في القرآن: { تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُمْ مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ } [البقرة/253].

وإنما خص بالذكر يونس -عليه السلام - لقوله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم (فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُكِنُّ وُجُوهَكَ لِلنَّاسِ لِمَذْهَبٍ مَّا حَبَّابًا) وهو يونس بن متى، عليه الصلاة والسلام أي: ولا تشابهه في الحال، التي أوصلته، وأوجبت له الانحباس في بطن الحوت، وهو عدم صبره على قومه الصبر المطلوب منه، وذهابه مغاضباً لربه عزوجل.

*فإن قيل :

قد روى أنس بن مالك - رضى الله عنه- أنه قال: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَقَالَ: يَا خَيْرَ الْبَرِيَّةِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «ذَلِكَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ» .⁵⁹

: وجوابه :

أن هذا قد قاله النبي - صلى الله عليه وسلم - تواضعاً منه ، وإلا فهو صلى الله عليه وسلم أفضل الرسل وأفضل الخلق على الإطلاق . أويقال أن كان قبل أن يُوحى إليه أنه خير الخلق أجمعين .

* عود إلى حديث الباب :

قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»

وأما الإيمان باليوم الآخر فهو أحد أركان الإيمان الستة التي يبني عليها إيمان العبد، وتستقيم بها عقيدته، ولا يصح بدونها دينه. فهو ركن من أركان الإيمان، فَرَضُ الْإِيمَانِ بِهِ، وَلَا يَصِحُّ إِيمَانٌ أَحَدٌ وَلَا إِسْلَامُهُ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَمَنْ أَنْكَرَ الْبَعْثَ أَوْ الْيَوْمَ الْآخِرَ فَإِنَّهُ كَافِرٌ . قال تعالى (وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَلَمْ نَكُنْ أَوْ لَمْ نَكُنْ لَكُمْ الْآخِرِينَ كَفَرُوا بِهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَعْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (5)(الرعد/5) قال السفاريني :

اعلم أن المعاد الجسماني حق واقع وصدق صادق دل عليه النقل الصحيح ولم يمنع العقل فوجب الإيمان به، والتصديق بموجبه لأنه جاء في السماع الصحيح المنقول ودل عليه عند الجمهور صريح المعقول، وهذا مما يجب اعتقاده ويكفر منكره ، وقد أنكره الطبايعيون والدهرية والملحدة وفيه تكذيب للنقل الصريح والعقل الصحيح على ما قرره المحققون من أهل الملة.⁶⁰

* وأول ما يكون في اليوم الآخر هو البعث، الذي هو إعادة الناس وإحيائهم بعد تفرق أشلائهم وأجزائهم، وبعد صيرورتهم تراباً ورفاتاً، هذا أول ما يكون في ذلك اليوم.

قال تعالى (لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ) (البقرة/177)

⁵⁹ أخرجه مسلم (2369)

⁶⁰ لوامع الأنوار البهية (157/2)

وَعَنْ أَبِي سَلَامٍ، عَنْ مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " بَخٍ بَخٍ، لَحْمَسٌ مَا أَنْقَلَهُنَّ فِي الْمِيزَانِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ وَسُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَالْوَالِدُ الصَّالِحُ يَتَوَقَّى فَيَحْتَسِبُهُ، وَالِدَاهُ " وَقَالَ: " بَخٍ بَخٍ لِحْمَسٍ مَنْ لَقِيَ اللَّهَ مُسْتَتِيقًا بِهِنَّ دَخَلَ الْجَنَّةَ: يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَبِالْجَنَّةِ، وَالنَّارِ، وَالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْحِسَابِ " 61

* وقد جعل الله -تعالى- الكفر باليوم الآخر نظير الكفر به سبحانه ، فقال عزوجل (وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا) [النساء: 136] بل إن المتتبع لنصوص القرآن يجد أن الآيات التي جاءت لإثبات البعث بعد الموت أكثر من تلك التي وردت في إثبات وجود الرب ؛ وسبب ذلك إنما هو كثرة المنكرين للبعث مقارنة بمن أنكروا وجود الرب عزوجل ؛ فإن الإقرار بالرب عام في بني آدم، وهو فطري كلهم يقر بالرب فطرة، إلا من عاند كفرعون والنمرود.

* ولاشك أن الإيمان باليوم الآخر له ثمرات عظيمة ، وأعظمها على الإطلاق أنه يدفع صاحبه دفعاً إلى ملازمة العمل الصالح وحسن الامتثال لأوامر الشرع ، لذا فالمستقرء لأدلة الشرع يرى أن الكثير من الأدلة الشرعية قد ربطت بين الامتثال و الإيمان باليوم الآخر ، قال تعالى (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا) (الأحزاب/21)

ومن أدلة السنة :

عَنْ أُمِّ عَطِيَّةَ-رضي الله عنها-قَالَتْ: قَالَ لِي النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يَجِلُّ لِمَرْأَةٍ تُوْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ تُحَدَّ فَوْقَ ثَلَاثِ إِلَّا عَلَى زَوْجٍ» 62 وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ-رضي الله عنه-عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "لَا يَجِلُّ لِمَرْأَةٍ تُوْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، تُسَافِرُ مَسِيرَةَ يَوْمٍ إِلَّا مَعَ ذِي مَحْرَمٍ " 63. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يُؤْذِ جَارَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ صَيْفَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُقَلِّ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ» 64 *والإيمان باليوم الآخر يتضمن كل ما يكون ذلك اليوم بمشاهده المتلاحقة المتتابعة من قيام الساعة و البعث من القبور، حين يأمر الله - تعالى - إسرافيل -عليه السلام - بالنفخ في الصور النفخة الثانية، ويبعث الله تبارك وتعالى الموتى من القبور.

ثم حشر الناس إلى أرض الموقف ، ثم العرض والسؤال وتتطاير الصحف ، وأخذ كتب الأعمال والحساب والميزان ، ثم المرور على الصراط : وهو جسر منصوب فوق جهنم يمر عليه جميع الناس، ورود الحوض ، ثم الجنة والنار. ونفي شيء من هذه المشاهد هو إنكار للقرآن ومتواتر السنة وإجماع الأمة. قال شيخ الإسلام ابن تيمية :

وأما طوائف من الكفار وغيرهم من الصابئة والفلاسفة ومن وافقهم فيقرون بحشر الأرواح فقط،

61 أخرجه أحمد (15662) وابن حبان (833) ، وانظر الصحيحة (1204).

62 أخرجه البخارى(5342)

63 أخرجه مسلم(1339)

64 متفق عليه.

وأن النعيم والعذاب للأرواح فقط. وطوائف من الكفار والمشركين وغيرهم ينكرون المعاد بالكلية، فلا يقرون: لا بمعاد الأرواح، ولا بالأجساد. ... وأما المنافقون من هذه الأمة الذين لا يقرون بألفاظ القرآن والسنة المشهورة فإنهم يحرفون الكلم عن مواضعه، ويقولون هذه أمثال ضربت لنفهم المعاد الروحاني، وهؤلاء مثل القرامطة الباطنية ... ومثل المتفلسفة الصابئة ... ، هؤلاء كلهم كفار يجب قتلهم باتفاق أهل الإيمان ... 65 .

قال القاضي عياض :

" ... وكذلك من أنكر الجنة أو النار، أو البعث، أو الحساب، أو القيامة فهو كافر بإجماع ؛ للنص عليه، وإجماع الأمة على صحة نقله متواتراً ، وكذلك من اعترف بذلك، ولكنه قال: إن المراد بالجنة والنار والحشر والنشر والثواب والعقاب معنى غير ظاهره ، وإنها لذات روحانية، ومعان باطنة . 66

* عود إلى حديث الباب :

قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدْرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»

وأما الإيمان بالقدر وهو الركن السادس من أركان الإيمان ، وهذا ركن من الأركان التي يمتاز بها أهل السنة عن أهل البدع ، والمخالفون في هذا الباب من أوائل أهل البدع الذين ظهرُوا في صدر الإسلام .

وقد ذكرنا في أول شرحنا لهذا الحديث أن مناسبتة إنما جاءت لما خرجت نابتة سوء تخوض جهلاً وتنطق كفرةً بنفى القدر وأن الأمر أنف ، فتصدى لها أهل العلم من سلف الأمة من الصحابة -رضى الله عنهم- والتابعين وتابعيهم بإحسان إلى يوم الناس هذا .

**ومعنى الإيمان بالقضاء والقدر في الشرع:

هو الإيمان بتقدير الله تعالى الأشياء في القدم، وعلمه سبحانه أنها ستقع في أوقات معلومة عنده، وعلى صفات مخصوصة، وكتابته لذلك، ومشينته له، ووقوعها على حسب ما قدرها، وخلقها له . 67

وهذا مما دل عليه القرآن والسنة وإجماع الأمة .

قال الله عز وجل: {إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ} ، ولهذه الآية سبب في نزولها ، فعن أبي هريرة -رضى الله عنه- قال:

" جَاءَ مُشْرِكُو قُرَيْشٍ يُحَاصِمُونَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْقَدْرِ، فَتَرَأَتْ {يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ دُوفُوا مَسَّ سَقَرٍ، إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ} [القمر: 49] 68

** وأما السنة :

فقد عقد أئمة الحديث كالبخاري ومسلم -رحمهما الله- في صحيحيهما كتاباً للقدر، اشتملا على عدة أحاديث في إثبات القدر، نذكر منها ما يلي :

(1) عن أبي هريرة -رضى الله عنه- عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ :
اِحْتَجَّ آدَمُ وَمُوسَى فَقَالَ لَهُ مُوسَى: يَا آدَمُ أَنْتَ أَبُوْنَا، خَبَيْتَنَا، وَأَخْرَجْتَنَا مِنَ الْجَنَّةِ قَالَ لَهُ آدَمُ: يَا مُوسَى اصْطَفَاكَ اللهُ بِكَلَامِهِ، وَخَطَّ لَكَ بِيَدِهِ، أَتَلُوْنِي عَلَى أَمْرِ قَدَرَ اللهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي

65 مجموع الفتاوى (314/4) وانظر شرح منظومة الإيمان للبشير المراكشي(ص/204)

66 الشفا بتعريف حقوق المصطفى (615/2)

67 القضاء والقدر (ص/39) د. عبدالرحمن المحمود.

68 أخرجه مسلم (2656) وانظر أسباب نزول القرآن للنيسابوري(ص/419)

بَارَبَعِينَ سَنَةً فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى ثَلَاثًا 69 .
 (2) أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ
 مِنَ الزَّانَا أَدْرَكَ ذَلِكَ، لَا مَحَالَةَ فَرْنَا الْعَيْنَ النَّظْرُ، وَزَنَا اللِّسَانَ الْمُنْطِقُ وَالنَّفْسُ تَمَنَّى وَتَسْتَهَي
 وَالْفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ وَيُكَذِّبُهُ 70 .
***** مراتب الإيمان بالقدر :**

1 - المرتبة الأولى : العِلْمُ :

وهو علم الله الأزلي في كل ما هو كائنٌ ، فإنَّ كلَّ كائنٍ قد سبق به علمُ الله أزلاً ، ولا يتجدد له
 علمٌ بشيءٍ لم يكن عالماً به أزلاً ، قا تعالى {يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا}
[طه:110]

وذلك يقتضى الإيمان بعلم الله - عز و جل - المحيط بكل شيء من الموجودات والمعدومات
 والممكنات والمستحيلات ، فالله -تعالى - يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف
 يكون . وأنه علم ما الخلق عاملون قبل أن يخلقهم وعلم أرزاقهم وأجالهم واحوالهم ، ومن هو
 منهم من أهل الجنة ومن هو منهم من أهل النار من قبل أن يخلقهم ، كل ذلك بعلمه الذي هو
 صفته ومقتضى اسمه العليم الخبير عالم الغيب والشهادة علام الغيوب 71 .
 وقد اتفق على الإيمان بالعلم السابق الرسل عليهم الصلاة والسلام من أولهم إلى خاتمهم ، واتفق
 عليه جميع الصحابة ومن تبعهم من الأمة ، ولم يخالف إلا مجوس الأمة غلاة القدرية 72 .
**** أقسام علم الله :**

(الله - عزوجل - يعلم ما كان ، وما هو كائن ، ويعلم ما سيكون ، وما لم يكن لو كان كيف
 سيكون)

قال الله (وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا
 يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين) [الأنعام:59]
 ويعلم ما سيكون ، قال تعالى (إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا
 تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) (لقمان/34)
 والله - تعالى - يعلم ما لم يكن لو كان كيف سيكون ، بمعنى أن الله -تعالى- يعلم الأمور التي ما
 قدَّرها ، لو وقعت فكيف سيكون حال وقوعها .

قال تعالى: { وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ } [الأنعام: 28] وقال تعالى: { وَلَوْ
 عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ } [الأنفال: 23]
**** ومن السنة ::**

عن أبي هريرة، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، سئل عن أولاد المشركين فقال: «الله أعلم
 بما كانوا عاملين» 73

*** قال النووي :**

وفي قوله- صلى الله عليه وسلم- " الله أعلم بما كانوا عاملين " بيان لمذهب أهل الحق أن الله

69 متفق عليه.

70 متفق عليه.

71 معارج القبول(920/3)

72 شفاء العليل(ص/29)

73 متفق عليه.

علم ما كان، وما يكون ما لا يكون لو كان كيف كان يكون، وقد سبق بيان نظائره من القرآن والحديث. 74

* المرتبة الثانية : الكتابة :

وهو الإيمان بأن الله - تعالى- كتب كل شيء في اللوح المحفوظ، فكل ما يكون من الذوات، والصفات، والأقوال، والأفعال، والحركات، والسكنات، والرطب، واليابس مكتوب، قال الله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: 59].

وقال سبحانه ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ نَدْلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: 22].

*** والسنة :

(1) عن عبادة بن الصامت -رضي الله عنه- قال : قال الرسول صلى الله عليه وسلم :
" إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ، ثُمَّ قَالَ: اكْتُبْ فَجَرَى فِي تِلْكَ السَّاعَةِ بِمَا هُوَ كَاتِبٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ "
(2) وعن عبد الله بن عمرو بن العاص- رضي الله عنهما- أن النبي -صلى الله عليه وسلم - قال:
(كتب الله مقادير الخلاق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء) 75
قال ابن القيم:

"وأجمع الصحابة والتابعون وجميع أهل السنة والحديث أن كل كائن إلى يوم القيامة فهو مكتوب في أم الكتاب" 76

3- المرتبة الثالثة: المشيئة :

المرتبة الثالثة من مراتب الإيمان بالقدر هي: المشيئة، المشيئة النافذة، أي: الماضية التي لا راد لها ، من نَقَدَ السهم نفوذاً إذا خرق الرمية فهي نافذة .

وهي ثابتة بالكتاب والسنة وأجمع عليها سلف الأمة:

قال تعالى : (وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ) (الكهف/ 23) وقال الله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَنَّاكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُفَعِّلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: 253]. ، وقال الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ وقال: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ .

ومذهب أهل السنة والجماعة:

أن الله - عز وجل - مريد لجميع أعمال العباد خيرا وشرا، ولم يؤمن أحد إلا بمشيئته، ولو شاء لجعل الناس أمة واحدة، ولو شاء أن لا يعصى ما خلق إبليس، فكفر الكافرين، وإيمان المؤمنين، بقضائه - سبحانه وتعالى - وقدره، وإرادته ومشيئته، أراد كل ذلك وشاءه وقضاه. 77

74 المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج(211/16)

75 أخرجه مسلم (2653) والترمذي (2156)

76 شفاء العليل(ص/ 41

77 عقيدة السلف وأصحاب الحديث(ص/285)

4- المرتبة الرابعة : الخلق :

قال تعالى: ﴿إنا كل شيء خلقناه بقدر﴾ [القمر: 49] ، وقال تعالى (أَنْعُبُونَ مَا تَنْحِتُونَ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ) 78 [الصافات: 95-96]

و قال النبي صلى الله عليه وسلم : " إن الله يصنع كل صانع وصنعه " 79
(2) وعن زيد بن أرقم -رضي الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم كان يقول:
((اللهم آت نفسي تقواها , وزكّها أنت خير من زكّأها , أنت وليها ومولاها ...)) 80
والشاهد من هذا الحديث قوله: ((اللهم آت نفسي تقواها وزكّأها ...))
فالفاعل هو الله تعالى, فهو الذي يُطلب منه ذلك .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية:

ومما اتفق عليه سلف الأمة وأئمتها مع إيمانهم بالقضاء والقدر وأن الله خالق كل شيء، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه يضل من يشاء، ويهدي من يشاء ... " 81

*تنبيه :

وقد تكلمنا عن مسائل القدر بمراتبه ، والرد على شبهات المنازعين في هذا الباب بشيء من التفصيل في شرح رسالة " بلوغ العَلَم في شرح حديث أول ما خلق الله القلم" ، فليراجعه -

78 اختلف العلماء في قوله تعالى ((وما تعملون)) هل (ما) هنا مصدرية ، فيكون المعنى : خلقكم وخلق أعمالكم ، أم هي موصولة ، ويكون المعنى " خلقكم وخلق الذي تعملون من اصنام وغيرها " ؟
* قيل أنه مصدرية ؛ قال البخاري : باب أفعال العباد : فأما أفعال العباد فقد حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا مروان بن معاوية، حدثنا أبو مالك عن ربيعي بن حراش، عن حذيفة رضي الله عنه، قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إن الله يصنع كل صانع وصنعه» وتلا بعضهم عند ذلك: {والله خلقكم وما تعملون} [الصافات: 96] ، فأخبر أن الصناعات وأهلها مخلوقة (خلق أفعال العباد/46)

-و قد رجّح الزمخشري في تفسيره الكشف أنها موصولة ، ولكنه يريد بذلك نصرة مذهبه الاعتزالي الذي يتبنى مسألة أن أفعال العباد من خلقهم هم .

**وأما من ذهب من أهل السنة إلي ترجيح أنها مصدرية إنما كان لاثبات أن أفعال العباد من خلق الله ، وذلك لا يبطال مذاهب القدرية .

والراجح أنها موصولة ؛ لأن السياق يقتضي ذلك ، فإن إبراهيم -عليه السلام -إنما يقرر فساد عملهم في أنهم يعبدون ما هو مخلوق مثلهم ، وتأمل في أول الآية يخبرك عن آخرها ؛ فإنه في أول الآية قال ((أتعبدون ما تنحتون)) فالخطاب إذن متوجه لما يعبدون مما صنعه أيديهم، فيكون المعنى :

أتعبدون ما تنحت أيديكم ، والله خلقكم وأياها ؟!!!

* * قال ابن القيم ((أما استشهاد بعضهم بقوله تعالى " والله خلقكم وما تعملون " بحمل "ما" على المصدر أي : خلقكم وأعمالكم) فالظاهر خلاف هذا وأنها موصولة ، أي خلقكم وخلق الأصنام التي تعملونها ، فهو يدل على خلق أعمالهم من جهة اللزوم ؛ فإن الصنم اسم للآلهة التي حل فيها العمل المخصوص فإذا كان مخلوقا لله كان خلقه متناولا لمادته وصورته .

أ.هـ

* ثم قال رحمه الله:
(فإن كانت ما مصدرية كما قدره بعضهم فالإستدلال ظاهر وليس بقوى ، إذ لا تناسب بين إنكاره عليهم عبادة ما ينحتونه بأيديهم وبين إخبارهم بأن الله خالق أعمالهم من عبادة تلك الآلهة ونحتها وغير ذلك، فالأولى أن تكون ما موصولة أي والله خلقكم وخلق آلهتكم التي علمتموها بأيديكم فهي مخلوقة له)) ليس فيها أنه يبرر شركهم بالله، ويقول: إن عملكم مخلوق لله ،فأنتم بريئون من اللوم عليه، كلا!!!

لأننا لو قلنا ذلك لكان يحتج لهم ولا يحتج عليهم، ولكن هو يحتج عليهم وليس يحتج لهم.أ.هـ وانظر شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر(ص/110)

79 أخرجه البخاري في خلق أفعال العباد(25) وابن أبي عاصم في السنة (257 و 358) وصححه الألباني في الصحيحة (1637) .

80 رواه مسلم (2722).

81 مجموع الفتاوى (8 / 459)

مشكوراً- من أراد الاستزادة.

* عود إلى حديث الباب :

قال جبريل عليه السلام : فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ ؟
قال النبي صلى الله عليه وسلم : «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»
والمرتبة الثالثة من مراتب الدين هي الإحسان، وهذه المرتبة لها ركنان وهما :
أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، وهذه ذروة مراتب الدين وأعلىها ، وهو
تمام الإخلاص .

قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ} [النحل:128]
قوله صلى الله عليه وسلم (أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ) ، وهذا يدفع إلى العمل، ويشعر بمراقبة الله -
تعالى- ومعيته مع الإنسان . فإن رؤية الله -تعالى- لما تعذرت في الحياة الدنيا فعلى المرء أن
يستشعر هذا المعنى مما يجعله يزداد إقبالاً ومحبة لربه تعالى .

قوله صلى الله عليه وسلم : « فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ » :
كما قال تعالى {وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ * الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبِكَ فِي السَّاجِدِينَ * إِنَّهُ
هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [الشعراء:217 - 220]

ولهذه المرتبة ثمرات عظيمة ومنها أن الشخص إذا ما استحضر مراقبة الله -تعالى- له فإنه
يزداد الله -تعالى- خشية ورهبة ، مما يحمله على زجر النفس عن المعصية وحملها على الطاعة
، قال تعالى (وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ) (الرحمن/46) ، وقال تعالى (وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ
وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (40) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى) (عبس/41)
قال عبد الرحمن بن قاسم :

هذا القدر من الحديث أصل من أصول الدين، وقاعدة مهمة من قواعد العلم، وهو من جوامع
الكلم التي أوتيتها صلى الله عليه وسلم، فإن إحسان العبادة: هو الإخلاص فيها، والخضوع،
وفراغ البال حال التلبس بها، ومراقبة المعبود، وأشار في الجواب إلى حالتين:
أرفعهما: أن يغلب عليه مشاهدة الحق بقلبه حتى كأنه يراه ، والثانية: أن يستحضر الحق - تعالى
- مطلعاً عليه، يرى كل ما يعمل⁸².

* عود إلى حديث الباب :

قال جبريل عليه السلام : فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ ؟
قال النبي صلى الله عليه وسلم : «مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ» معنى قوله: (ما المسئول
عنها بأعلم من السائل) أن علم الساعة استوى الخلق فيه، حتى الملائكة والرسل لا يعلمون ذلك،
وإنما هو مستأثر عند الله جل وعلا، لا يعلم وقتها إلا الله تعالى .

فهى من علم الله - عز وجل - الخاص به الذي لم يطلع عليه أحد ، قال تعالى { إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ
أَكَادُ أَخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى } [طه:15] فهي واقعة، ولكن وقت وقوعها غير معلوم.
وقال تعالى (يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا)
(الأحزاب/63)

وسبب السؤال عن الساعة زجر الناس عن السؤال عنها، فإنهم أكثروا السؤال عنها، كما قال

⁸²حاشية عبد الرحمن بن قاسم على الأصول الثلاثة(ص/118)

تعالى: {يسألك الناس عن الساعة}، فلما أجيبيوا بأنه لا يعلمها إلا الله سبحانه- كفوا؛ لأن معنى:
" ما المسؤول عنها بأعلم من السائل " : لا علم لى ولا لك ولا لأحد به .⁸³
قَالَ جبريل عليه السلام : فَأخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَتِهَا ؟ ، قَالَ صلى الله عليه وسلم :
«أَنْ تَلِدَ الْأُمَمَةُ رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَى الْحَفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّيْءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ» ،
وقوله صلى الله عليه وسلم: (أن تلد الأمة ربته) :
اختلف العلماء في معنى ذلك على سبعة أوجه، لكنها متداخلة، وتلخص على أربعة أقوال :

القول الأول:

قال الخطابي: معناه : اتساع الإسلام واستيلاء أهله على بلاد الشرك وسبي ذراريهم ، فإذا ملك الرجل الجارية واستولدها كان الولد منها بمنزلة ربها، لأنه ولد سيدها ، قال النووي وغيره:
إنه قول الأكثرين.

واعترض الحافظ ابن حجر على ذلك فقال:

لكن في كونه المراد نظر؛ لأن استيلاء الإماء كان موجوداً حين المقالة ، والاستيلاء على بلاد الشرك وسبي ذراريهم واتخاذهم سراري وقع أكثره في صدر الإسلام، وسياق الكلام يقتضي الإشارة إلى وقوع مالم يقع مما سيقع قرب قيام الساعة.

القول الثاني:

إن تتبع السادة أمهات أولادهم ويكثر ذلك في تداول الملاك المستولدة حتى يشتريها ولدها، ولا يشعر بذلك.

القول الثالث:

قال النووي : لا يختص شراء الولد أمه بأمهات الأولاد ، بل يتصور في غيرهن بأن تلد الأمة حراً من غير سيدها بوطء شبيهة، أو رقيقاً بنكاح، أو زنا ، ثم تباع الأمة في صورتين بيعاً صحيحاً، وتدور في الأيدي حتى يشتريها ابنها أو ابنتها.

القول الرابع :

أن يكثر العقوق في الأولاد فيعامل الولد أمه معاملة السيد أمته من الإهانة بالسب والضرب والاستخدام ، فأطلق عليه ربها مجازاً لذلك ، أو المراد بالرب المربي فيكون حقيقة .

والراجح - والله أعلم - القول الرابع ، وهو الذي رجحه الحافظ ابن حجر، وقال بعد أن ذكر الترجيح:

ولأن المقام يدل على المراد حالة تكون مع كونها تدل على فساد الأحوال مستغربة، ومحصلة الإشارة إلى أن الساعة يقرب قيامها عند انعكاس الأمور. بحيث يصير المربي مريباً، والسافل عالياً، وهو مناسب لقوله في العلامة الأخرى : (أن تصير الحفاة ملوك الأرض)⁸⁴.

⁸³ وانظر صحيح مسلم وشرحه المسمى " إكمال إكمال المعلم " (69/1) لمحمد بن خلفه الوشتاني الأبى المتوفى (827-828هـ)

⁸⁴ انظر فتح الباري(162/1) وصحيح مسلم شرح النووي(177/1)

***ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم :**

" وَأَنْ تَرَى الْأَعْرَافَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ " فهذه هي العلامة الثانية ، وهي كون البدو رعاء الشاء - رعاة الغنم والإبل- أهل تمدن يتطاولون في البنين، أي: يتنافسون في البناء وحسنه وارتفاعه ، وهذا حصل في مراحل متعددة من تاريخ المسلمين.
قَالَ: ثُمَّ انْطَلَقَ فَلَبِثْتُ مَلِيًّا، ثُمَّ قَالَ لِي: «يَا عُمَرُ أَتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ؟» قُلْتُ : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «فَإِنَّهُ جَبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ»

*** فوائد في الختام :**

الفائدة الأولى :

هل يستدل بحديث الباب على أن أعمال الجوارح ليست من الإيمان ، لأنه ذكرها في معرض السؤال عن الإسلام ؟؟؟

والجواب :

قد جعل النبي - صلى الله عليه وسلم - الإسلام اسماً لما ظهر من الأعمال، والإيمان اسماً لما بطن من الاعتقاد، وليس ذلك؛ لأن الأعمال ليست من الإيمان، أو التصديق بالقلب ليس من الإسلام، بل ذلك تفصيل لجملة هي كلها شيء واحد وجماعها الدين؛ ولهذا قال - صلى الله عليه وسلم -: "أتاكم جبريل يعلمكم دينكم" . والتصديق والعمل يتناولهما اسم الإيمان والإسلام جميعاً، يدل عليه قوله سبحانه وتعالى: {إن الدين عند الله الإسلام} [آل عمران: 19]، {ورضيت لكم الإسلام ديناً} [المائدة: 3]، {ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه} [آل عمران: 85]

فأخبر أن الدين الذي رضيه ويقبله من عباده هو الإسلام، ولن يكون الدين في محل القبول والرضا إلا بانضمام التصديق إلى العمل .⁸⁵

ثم يقال هنا :

كما فُسر الإيمان بالاعتقاد في حديث جبريل -عليه السلام - فقد فُسر بالعمل ، وهذا ما دل عليه الكتاب والسنة :

قال تعالى (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (2) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (3) أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (4)) (الأنفال/4)
وقال تعالى (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (15)) (الحجرات/15)

و في حديث وفد عبد القيس ، فقد قال لهم النبي صلى الله عليه وسلم :

«أَتَدْرُونَ مَا الْإِيمَانُ بِاللَّهِ وَحْدَهُ» قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامُ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَصِيَامُ رَمَضَانَ، وَأَنْ تُعْطُوا مِنَ الْمَعْنَمِ الْخُمْسِ» .⁸⁶

قال الخطابي :

فضم هذه الأعمال إلى كلمة الشهادة وجعلها كلها إيماناً، وهذا يبين لك أن اسم الإيمان قد يدخل على الإسلام واسم الإسلام يدخل على الإيمان، وذلك لأن معنى الإيمان التصديق ومعنى الإسلام

⁸⁵ وانظر شرح السنة (59/1) والتوضيح لشرح الجامع الصحيح(457/2)

⁸⁶ متفق عليه .

الاستسلام، وقد يتحقق معنى القول بفعل الجوارح ثم يتحقق الفعل ويصح بتصديق القلب نية وعزيمة، وجماع ذلك كله الدين، وهو معنى قوله جبريل أتاكم يعلمكم دينكم.⁸⁷

ودفعاً لتوهم التعارض بين حديث جبريل وحديث وفد عبد القيس، فقد جمع السلف بينهما - على أن الإسلام والإيمان إذا اجتمعا افترقا. وإذا افترقا اجتمعا. فالإيمان والإسلام إذا ذُكرا مجتمعين، كما في حديث جبريل، فإنه يراد من كل منهما غير ما يراد من الآخر، فيراد من الإيمان ما في القلب، من الإيمان بالله وملائكته... إلى آخر ما ذُكر في الحديث. ويراد بالإسلام الشهادتان بتوابعهما من الأعمال الظاهرة. وإذا ذُكر أحدهما مجرداً عن الآخر دخل الآخر فيه، كما في حديث وفد عبد القيس.

فما يسمى إسلاماً يسمى إيماناً، وأن الإسلام والإيمان يجتمعان ويفترقان، فإذا ذُكر أحدهما دخل فيه الآخر.

فلا إيمان باطن إلا بإسلام ظاهر، ولا إسلام ظاهر إلا بإيمان باطن، وأن الإيمان والعمل قرينان، لا ينفع أحدهما بدون صاحبه.⁸⁸

وخاصة ما سبق أن يقال:

والإسلام والإيمان إذا ذُكرا جميعاً فالإسلام معناه الأعمال الظاهرة، والإيمان هو الأعمال الباطنة، أعمال القلوب، وما يقوم به من التصديق والعلم، ولا بد من الإسلام والإيمان جميعاً، الإسلام الأعمال الظاهرة، والإيمان الأعمال الباطنة؛ لقوله صلى الله عليه وسلم: «الإسلام علانية، والإيمان في القلب»، فإن ذُكرا جميعاً صار لكل واحد معنى خاص به، وإذا ذُكر واحد منهما دخل فيه الآخر، إذا ذُكر الإيمان وحده دخل فيه الإسلام، وإذا ذُكر الإسلام وحده دخل فيه الإيمان؛ لأنه لا يصح إسلام بدون إيمان، ولا يصح إيمان بدون إسلام، لا بد من الاثنين، فهما متلازمان، ولهذا يقولون: إن الإسلام والإيمان من الأسماء التي إذا اجتمعت افتترقت، وإذا انفردت اجتمعت، أي: يدخل بعضها في بعض لأنهما متلازمان، لا ينفك أحدهما عن الآخر.⁸⁹

تم بحمد الله .

⁸⁷ معالم السنن (538/3)

⁸⁸ المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج (138/1) والإيمان بين السلف والمتكلمين (ص/37)

⁸⁹ شرح الأصول الثلاثة لصالح الفوزان (ص/233)